فصول في

التراث المخطوط

عصام محمد الشنطي

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فصول في التراث المخطوط

عصام محمد الشنطي

القاهرة
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٥٢٩٣ / ٢٠١٢م

ISBN
978- 977- 481- 060- 2

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الشنطي ، عصام محمد .
فصول في التراث المخطوط / عصام محمد الشنطي . ـ ط١ . .
القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠١١ .
١٢٨ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ٢ ٠٦٠ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ المخطوطات العربية
٢ ـ المخطوطات ـ تحقيق
أ ـ العنوان ٠٩١,١

مكتبة الإمام البخاري
الإسماعيلية ٤٦ شارع الجمهورية ,, الثلاثيني ,, بعد السنترال
تليفون ٠١٢٢٣٦٧٦٧٩٧

المُحتَوَيات

* * *

مُقَدِّمَة

أكرمني بزيارتي لي في معهد المخطوطات العربية ، أثناء تأدية عملي فيه ، الشيخ عماد عَبَّاس ، مدير مشروع السنة النبوية بجمعية المكنز الإسلامي ، في المَعَادي ـ ضاحية من ضواحي القاهرة ـ ذات العلاقة الحميمة بمركز الدراسات الشرق أوسطية والإسلامية بجامعة كمبردج ـ انجلترا ، وذلك في يوم من أيام شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ٢٠٠٧م .

وكان الهدفُ من الزيارة التحدث في وضع باحثي الجمعية العلمي ، وأنهم تخصصوا منذ سنين مَضت في تحقيق نصوص في العلوم الدينية ، خاصة العمل في أُمَّهات كتب السُّنَّة النبوية المُطهَّرة ، سندًا ومتنًا .

وقد أبدى الشيخ عماد أنهم اكتسبوا في أعمالهم خبرةً واسعة ، وتجربة عميقة ، وعلمًا وافرًا في هذا التخصص ؛ ولكنه ـ بإزاء ذلك ـ يشعر بوجود ثغرة تتعلق بجوانب من التراث العربي الفكري المخطوط ، لم يتسنَّ لهم الاطلاع عليها . ويرى ـ بفكره الثاقب ـ ضرورة توسعة آفاق معارفهم في هذا السبيل .

ويأمل موافقتي على اختيار موضوعات مختلفة تُلقىٰ في هيئة محاضرات على هؤلاء الباحثين ، لتتنوع معارفهم في باحة[1] التراث الواسعة ، وأعلمني أنه قد حصل على موافقة مبدئية من المسئولين على عشر محاضرات تُلقىٰ عليهم ، في موضوعات تراثية ، بهدف ما يُمكن أن أُقِّبه بمواد ثقافية تحاول أن تُغطي موضوعات التراث الفكري عامَّة . وخيَّرني أن أختار المواعيد التي أراها مناسبة ، وأن الجمعية ستوفر لي سيارة تنقلني من مسكني إلى مركز الجمعية ، حيث قاعة

---

(١) ساحة .

المحاضرات ، والعودة إليه .

وشعرتُ أن الرَّجل الفاضل جادٌّ ، وأن الفكرة ـ في ذهنه ـ ناضجة . وقد حاصرني ، لأنه لم يترك لي جانبًا من الأسئلة ، إلّا أجاب عليه قبل طَرْحه .

وكان عليَّ أن أنوِّع في هذه المحاضرات ، وأن أجُوب فيما حول خدمة التراث العربي الفكري المخطوط ، في نواحيه كافَّة . وكنتُ وأنا أضع خُطَّة أُوْلى لموضوع المحاضرات أتصوّر أن هؤلاء الباحثين العلماء في تخصصهم ، كانوا عاشوا سنين طوالًا في غرفة رَحْبة متَّسعة ، تستمد رحابتها من شرف العمل في السُّنَّة النَّبوية المُطهَّرة ، سندًا ومتنًا ، ولكنها لا تلبث أن تكون غرفةً ذات أرض وسقف وجدران أربعة ، ليس لها إلا نوافذ صغيرة عالية ، تضمن لهم تجديد الهواء ، والحِفاظ على نقائه .

وكنت أحسّ وأنا أُلقي المحاضرات ـ بمعدل محاضرة كلّ أسبوع ، مع إفراغٍ وقتٍ كافٍ للمداخلات والاستفسارات ـ بحُسْن الاستقبال ، والحفاوة البالغة ، وابتسامات التِّرحاب يوم لقائي بهم ، للاستماع إلى ما أقواله .

لقد نالت هذه المحاضرات القَبول ، وبدا على الباحثين الاندهاش من هذه المعارف الجديدة التي تطرح عليهم ، ووفَّق الله أن نظروا إليها بعين الرِّضا ، ولهفة الاستماع .

وبعد حين من الدهر ، عَلا صِيت هذه المحاضرات إلىٰ أن طُلب إليَّ إلقاؤها في مركزين من مراكز تحقيق التراث الجادّة بالقاهرة ، متخصصين أيضًا في العلوم الدينية ، خاصة السُّنَّة النبوية . بل امتدّ علوّ الصيت إلى قطر عربي شقيق ، يدعوني إلى إلقائها مكثَّفة في مدى أسبوع واحد .

ويلاحظ القارئ أن بعض هذه المحاضرات كانت قد نُشرت ، من قبل ، في شكل بحوث منفردةً ، أو جزءًا من كتاب ، اقتضت نشرها في مناسبات مغايرة . وقد اقتطعتها من مواضعها لتوليفها مع غيرها منظومة جديدة تهدف إلى ذيوعها ، ثقافةً تراثيّة عامة ، إذا صحَّ التعبير .

والله الموفِّق ، في الأوَّل والآخر .

عصام محمد الشنطي

القاهرة :

الثلاثاء ٢٨ صفر ١٤٣٢هـ

١ فبراير (شباط) ٢٠١١م .

الفَصلُ الأَوّل

أهمية التراث للأمة وأسباب تَأَلُّق الحضارة العربية الإسلامية ودَوَاعي نجاحها

(١)

توطئة :

حين جاء الإسلام في الجزيرة العربية ، كانت الأُميَّة هي الطابَع الفاشي لهذه الأمة ، وكان الذين يعرفون الكتابة وشيئًا من الحساب في مدينة مكة المكرَّمة آنذاك يُعدّون علىٰ الأصابع ، على ما ذكر ابن عبد ربِّه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م) في كتابه المشهور « العِقْد الفريد » . مع أنها مدينةٌ ـ بجانب أهميتها الدينية ـ تجاريةٌ تتعامل مع كثير من القبائل ، وفي تِجارتهم إلى بلاد الشام وغيرها .

والعجيب أنه لم تمض بضعةُ عقود ، إلّا قد تهيّأ للأمة بوادر تقدّم ، فٱنتشرت الرغبة في تعلّم القراءة والكتابة انتشارًا سريعًا ، وتعدّدت المدارس في المساجد والساحات بجوارها في كلّ مكان من بلاد العرب وأطرافها من البلاد المفتوحة . وٱنقلب الحال من أُمّة أميّة ، إلى مجتمع أصبح القادرون فيه على القراءة والكتابة من الكثرة ما يُدهش .

ولم يمضِ على تلك البداية قرنٌ ، وبعض قرن ، إلّا ونجد إبداعات في العلوم النقلية . وطبيعي أن يلتفت العربُ والمسلمون أول ما يلتفتون إليه ، هو القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، فَأَلَّفُوا في علومهما ، وكذلك في الفقه القائم على الشريعة الإسلامية السمحاء .

ثم توجَّهوا إلى لغتهم العربية ، لغة القرآن ، فوضعوا نحوَها وصرفَها ، وبلاغتَها ، وعَرُوضَها ، وطلائعَ معاجمها اللغوية ، وألَّفوا كتبًا في التاريخ ، وحوادث السنين . ومن علماء هذه العلوم المتميِّزين المبدعين الخليل بن أحمد الفراهيدي الأَزْدي (ت ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م) وسِيبَويْه (تعني بالفارسية رائحة التفاح) (ت ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) ، وهو من تلاميذ الخليل الأفذاذ ، وغيرهما كثير .

أما العلوم العقلية ، أو العلوم التجريبية ، فقد كانت معارفهم فيها محدودة ، نَمَّوْها بالترجمة عن الأُمم الأخرى من ذوي الحضارات السابقة كالإغريق في أوربا ، والفرس والهنود في المشرق ، ولم تكن أديان تلك الأقوام عائقًا عن أَخذ العلوم عنهم .

(٢)

دواعي النجاح :

من هذه التوطئة يَلفت النظر هذا التألُّق الحضاري الذي يبعث على التساؤل ، ما أسبابه ، وما دواعي نجاحه ؟

إن الإجابة تنصرف إلى حُزمة من الدَّواعي اجتمعت لدى هذه الأمة ، وهيّأت لها الاشتغال بالعلوم المختلفة ، وشاركت في ركب الحضارة الإنسانية ، وقدّمت لها حضارة نعتزّ بها ونفخر .

* **أول هذه الدواعي أن الإسلام في القرآن والحديث حثَّ على التعلّم** ، والإقبال على المعرفة ، وميَّز العلماءَ بما فيهم من فضيلة العلم .

والآيات الكريمات كثيرة في هذا المعنى . وحسبي أن أذكر منها في هذا السياق قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّمَر : ٩] .

وكذلك السُّنَّة المطهَّرة جعلت طلب العلم فريضةً على كلٍّ مسلم ومسلمة . ونحفظ منذ صغرنا ما في الأثر : « اطلبوا العلمَ ولو في الصين » (١) . ونعلم

(١) رواه ابن عدي (٢ / ٢٠٧) وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢ / ١٠٦ عن أنس مرفوعا : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، « فإنَّ طلب العلم فريضّة على كل مسلم » . والشطر الأول منه متنه مشهور ، وأسانيده ضعيفة . راجع : « السلسلة الضعيفة » للألباني برقم ٤١٦ . أما الشطر الثاني : فيرتقي إلى درجة الحسن ، فإنّ له طرقًا كثيرة عن أنس بن مالك ، وروي عن جماعة من الصحابة . ينظر : « تخريج أحاديث مشكلة الفقر » للألباني ص ٤٨ - ٦٢ .

كذلك أن مِن أسرىٰ « بدر » ممَّن لم يكن له فِداء ، علَّم عشرة غلمان من غلمان المدينة المنوَّرة . وكان أهلُ مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون .

* **وثاني هذه العوامل : انتشار أدوات الكتابة** ، وفي مقدمتها صناعة الورق . وفي نصّ في أوائل قيام الدولة العباسية كان العرب يأتون بالورق شراءً من سمرقند التي تعلمته من الصين . وفي عهد هارون الرشيد جلب البرامكة عُمَّالاً من سمرقند والصين إلى بغداد ووفّروا لهم معامل الصناعة ، وبدأ الورق ينتشر في قصبة البلاد بثمن أقلَّ بكثير من ورق البَرْدِي والرقوق (الجلود) . ومنها انتشرت صناعته في بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس . والأوروبيون عرفوا الورق من عرب الأندلس الإسلامية . وكانوا يشترونه منهم ، وتعلَّموا صناعته على أيديهم .

وقد ولَّدت صناعةُ الورق مهنة الوِرَاقة ، وأصبح هناك دكاكين الورَّاقين في بغداد أولا ؛ مهمةُ أصحابها تقطيع الورق وبيعه ، وكذلك نَسْخ المخطوطات ، ومُراجعتها وتصحيحها وتجليدها وبيعها .

وفي خِضَمّ هذا الزَّخَم الحضاري تأسست المكتبات العامة ، قام بتأسيسها الخلفاءُ والأمراء والولاة . ونسمع في التراث عن مكتبات تحتوي على أُلوف مؤلَّفة من هذه الكتب المخطوطة .

انتشرت المكتبات في عهد العباسيين في بغداد ، والأمويين في الأندلس ، والموحِّدين في مُرَّاكش ، والحمدانيين في حلب ، وبني عمَّار في طرابلس الشام ، والفاطميين في مصر ، وغير ذلك ، وحسبنا أن نشير إلى أنه كان في المكتبة الواحدة مئات من النُّسَخ من الكتاب الواحد . وما توفّر هذا العدد إلّا لكثرة طلاب العلم والبحث .

* **ومن العوامل التي ساعدت على نجاح هذه الحضارة نظام التعليم في**

الإسلام ، فقد كان التعليم ـ خاصةً في القرون الأولى ـ بالمجَّان ، ولم يكن العالم يتقاضىٰ عن تدريسه أجرًا ، وكلهم كانت لهم مِهَنٌ يعتاشون منها ، ونُسبوا إلى هذه المِهَن ، كالثعالبي والفرّاء والزَّجّاج إلخ ...

وكان عندهم نظام المُعِيد ، بمعنى أنه إذا كان عددُ الطلاب كثيرًا ـ يصل أحيانًا إلىٰ أُلوف ـ فإن الشيخ يقول الجملة من كتابه ، والمُعِيد ، أو أكثر ، ينقلون ذلك بصوتٍ عالٍ ليسمع الجميع ، فيكتبون ما سمعوه .

وكذلك من أسلوب التعليم أن يجلس الشيخُ يُملي على طلابه ما يعنُّ له من علم وفوائدَ ارتجالًا ، دون الرجوع إلى كتاب بين يديه ، ويجيب علىٰ كلّ سؤال يُلقىٰ عليه ، ويُفيض الشيخُ في الإجابة مستقصيًا المسألة إلى آخرها . وكان بعضهم يُخَصِّص أيامًا من الأسبوع للأمالي . والأمثلة في التراث العربي كثيرة مثل « أمالي أبي علي القالي » التي أملاها في قرطبة ، و « أمالي ابن الشَّجَري » ، و « أمالي المرتضىٰ » ، وكتاب « الإمتاع والمؤانسة » لِ أبي حيّان التوحيدي .

إن حلقاتِ الدرس التي كانت تُجرىٰ في المساجد والساحات المجاورة ، كان ينمو فيها الحوارُ بين الشيخ وتلاميذه ، وكان هذا باعثًا علىٰ خَلْق حركة علمية ، وشيوع نهضة في مختلف العلوم النقلية والعقلية ، التي تميَّزت الحضارة العربية الإسلامية بالتوازن بينهما ، لم يَطْغَ أحدهما على الآخر .

* **أما رابع هذه العوامل : اهتمامُ الخلفاء ، وقوّة سلطانهم على معرفة علوم الأمم السابقة** ، كالإغريق والفرس والهنود . وبدأ الاطلاع عليها بالترجمة ، وقد بدأت في أواخر عهد الأمويين بدمشق . وتصاعدت في العهد العبَّاسي ، منذ عهد أبي جعفر المنصور ، مؤسس مدينة بغداد ، والذي تولَّىٰ الخلافة ما يزيد على عشرين سنة ، وكان له خزانةُ كتب غذّاها بأن بعث إلى ملك الروم يطلب كتبًا

إغريقية (علوم الأوائل) لمكتبته ، وأخذ المترجمون ـ بطلب من الخليفة ـ في نقلها إلى اللغة العربية .

وبلغت الترجمةُ في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ = ٨٣٣م) قمَّتَها . وهو الذي أسّس في بغداد (بيت الحكمة) ، ودارَيْن للرصد الفلكي . وكانت هذه بمثابة مركز للترجمة والبحث العلمي ، يتبعها مكتبة ضخمة للمصادر والمراجع . وقد مارس المأمون نفسُه بعضَ النشاطات العلمية في الفلك على آلات رصدية كبيرة ودقيقة .

وكان هذا الخليفةُ يشجّع على الترجمة ، ويحرص على إحضار كتب علوم القدامى (الأوائل) من الإغريق وغيرهم بشتّىٰ الوسائل ، ويوفِّر المترجمين لنقلها إلى العربية ، وكان ذلك يتمُّ غالبًا عن طريق اللغة السُّريانية ويكافؤهم مكافآت سخية ، ويقرّبهم من مجلسه توقيرًا لهم ، وتقديرًا لمكانتهم .

وقلنا ، قبل قليل ، إن ديانات هؤلاء الأقوام الذين أخذ عنهم العرب والمسلمون ، لم تكن عائقًا عن أن ينهلوا من علومهم ، وهم وثنيون . ولم تتحرّج الأمة من هذه الاستفادة العلمية ، وهم أقرب للإسلام منّا اليوم .

* **ولا نُغفل عاملاً خامسًا كان مُعِينًا على تفوّق دَوْر العرب الحضاري ، وهو ما عُرف عن الإسلام من تسامح وحرية رأي** ، ومعاملة طيِّبة للمواطنين الجُدُد ، سواء الذين اعتنقوا الإسلام أو بقوا على دياناتهم ، فهذا التسامح ، وهذه الحرية جعلت المواطنين الذِّمِّيين يشاركون في بناء الحضارة الجديدة ، جنبًا إلى جنب مع المسلمين ، وقد ذكرنا دَوْرَ السُّريان في الترجمة من الإغريقية إلى السُّريانية ، فالعربية . وابن المقفَّع الفارسي الذي بقي على مجوسيته ، ولم يُسْلم إلّا في أُخريات عمره ، وقد نَقل كثيرًا من كتب سياسة الدول ونُظُمها ، وسلوك الخلفاء وعدلهم ، وكُتُب الأدب ، من الفارسية إلى العربية . وكان مُتقِنًا لها ، فصيحًا فيما

يكتب ، ويُذكَر أسلوبُه من الأساليب التي تُحتذىٰ .

والأطباء في العصر العباسي كان كثير منهم من أُصول فارسية . والبِيرُوني (ت ٤٤٠هـ = ١٠٤٨م) كان بجانب إتقانه العربية وانتصاره لها ، يعرف الهندية التي نقل منها علومًا متقدّمة . وإن نسينا لا ننسىٰ طائفة اليهود في الأندلس الإسلامية الذين عوملوا فيها بعدالة ، لم يشهدوها قبل العهد العربي الإسلامي . وكانت مشاركتهم بِإزاءِ ذلك مشاركة فاعلة .

(٣)

كُنَّا ونَكون :

بهذه العوامل جميعًا كان دور العرب المسلمين الحضاري فاعلاً . فلم يكتفوا بفهم علوم الأمم الأخرى عن طريق الترجمة ، وإنما هضموا ما فهموه ، وتمثَّلوه جيدًا ، وبلغوا من العمق أن صحَّحوا كثيرًا من أوهام العلماء الإغريق ، مثل جالينوس وبطليموس ، في الفلك والرياضيات ، وغيرهما من العلوم ، وطوَّر العربُ هذه العلوم ، وأَتَوْا بجديد أضافوه إليها ، طيلة تسعة قرون كاملة . وتُعَدُّ حضارتُهم الزاهرة من أطول الحضارات عُمْرًا في التاريخ ، واتَّسع مجالها من الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا .

وطبيعة العلوم ـ كما هو معروف ـ تراكمية ، هذا يأخذ من ذاك ، وهذا يضيف إليه جديدًا ، والإغريق أنفسُهم أخذوا من أمم سابقة كالبابليين والآشوريين في حضارة ما بين النهرين : دجلة والفرات ، كما أخذوا من علوم مصر القديمة في العهد الفرعوني .

أما تقدُّم هذه الحضارة في العلوم النقلية ، فقد كان ذاتيًّا خالصًا ، منبعثًا من القرآن الكريم ، وإبداعهم فيها شاهدٌ كبير على المشاركة الفاعلة في ركب

الحضارة الإنسانية .

ثم غربت شمس هذه الحضارة ، بعد قرون الإبداع ، منذ قرون ـ تُقَدَّر بنحو أربعة قُرون حسب ـ نَسِيَ فيها أصحابُها تراثَهم بسبب الحروب والاحتلالات ، وفتورهم عن الاهتمام بالعلوم ، إلى أن جاء القرن العشرون المنصرم ، وأصبحنا فيه ثلاثَ طوائف :

ـ طائفة تقدِّس القديم ، وتتمسك به ، وترفض الجديد ، وتعدّه غزوًا ثقافيًّا .

ـ وطائفةٌ في الطرف الآخر ، تلفظ القديم بكامله ، وترىٰ أن نأخذ عن الغرب علومهم المعاصرة .

ـ وطائفةٌ ـ أحسَبها الآن غالبة ـ ترى الرجعة إلى التراث ، ورعايته وتطعيمه بالجديد الغربي ، ليكون له طعمٌ مختلِف ، له خصوصيةُ أصحابه .

إن أيَّ أمة من الأمم ترغب في النهوض ، وتوفّرت لها أسباب ذلك ، لا بدّ أن تعود لتراثها ، تنشره مُحَقَّقًا مَدْرُوسًا ، مع الأخذ بالعلومِ الحديثة . ذلك أن نهضة الأمم لا تبتدئ ـ عادة ـ من الصفر ، بل تُكمل ما انقطعت عنه ، وتصل ما توصَّلت إليه في السابق .

إن الغرب على تقدّمه العلمي التقني ، إنما يعود إلى تراثه ، ويرى فيه فوائد يجنيها . وتراثنا زاخر بالفوائد ، وليس صحيحًا أنه نافع لدروس تاريخ العلوم حسب . والأمثلة كثيرة . أكتفي بضرب واحدٍ منها ، وهو كتاب « الجوهرتين العتيقتين » لِـ ابن الحائك الهَمْداني (ت ٣٣٤هـ = ٩٤٥م) الذي يتضمن معلومات جيولوجية وتعدينية ، لمَّا رَجَعت إليه بعثةٌ أجنبية عُهد إليها التنقيب عن موارد اليمن المعدنية والبترولية ، أفادت منه كثيرًا ، وأدّى إلى اكتشاف العديد من المناجم بكميات تجارية .

إن إحياء تراث العرب المسلمين تحقيقًا ودرسًا ، يكشف لنا عن حقيقةِ دَوْرِ

العرب الحضاري إبّان نهضتهم ، ومدى مشاركتهم في مسيرة الحضارة الإنسانية ، وبهذا تدخل هذه المباحث في نطاق العزّة القومية ، وفضل الإسلام على تلك الحضارة ، وهي بالتالي تُفيد في استنهاض همم الناشئة والشباب ، وترفع من معنوياتهم ، لإكمال مسيرة الأجداد إلى آفاق مستقبل مشرق .

إن شعارَنا الآن كما ينبغي أن يكون : بالماضي نبني المستقبل ، ونطوّره إلى مجتمع حديثٍ حَقًّا .

* * *

الفَصْلُ الثَّاني

تعريف المخطوطة ، وصناعة الورق ، والوِرَاقة والنِّساخة والمكتبات الزاخرة بالمخطوطات وخدمتها

(١)

تعريف المخطوطة :

تخلو المعجمات اللغوية القديمة من مادة (مخطوطة) ، فإذا رجعنا إلى « لسان العرب » لِابن منظور (ت ٧١١هـ = ١٣١١م) ، وإلى « تاج العروس » لِ الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ = ١٧٩٠م) نجدهما خاليين من ذكر هذه المادة ، فضلاً عن تعريفها .

أمّا إذا عُدنا إلى « المعجم الوسيط » الذي أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٦٠ م ، في طبعته الأولى ، نجد هذه المادة قد بدأت تدخل في المعجمات المتأخرة ، تفريقًا بينها وبين الكتاب المطبوع ، فقد جاء في جَذْر خَطَّ (خَطَطَ) من المعجم المذكور : « المخطوطُ : المكتوب بالخطّ ، لا بالمطبعة . جمعُه مخطوطات . والمخطوطة : النسخة المكتوبة باليد » .

وكان الأجدادُ الأَعْلَوْن لا يتعاملون مع الكتاب ، أو الكُرَّاسة ، إلّا مخطوطًا ، وهو الشكل الوحيد من الكتب لديهم ، لسببٍ بسيط : أن المطبعة لم تكن قد ظهرت بعد .

وببساطة **نُعَرِّف المخطوطة** بالكتاب ، أو الكُرَّاسة ، الذي كُتب على ورقٍ أو نحوه ، بخط اليد ، قبل نشأة الطباعة بنحو قرن ونصف القرن ، أو قرنين على وجه التقريب . نقول على وجه التقريب لأنَّ الطباعة عُرفت في الأقطار العربية والإسلامية على تفاوت ، فبعضها عرفها مبكرًا ، وأُخرىٰ كحضرموت من اليمن ، وموريتانيا كانوا إلى عهدٍ قريب يتعاملون فيما بينهم مع نِساخة المخطوطات بأسلوبها التراثي القديم .

وحين ننظر إلى المخطوطات من جهة لغتها وحروفها ، نجدها على نوعين : الأول : المخطوطات العربية ، وهي التي كتبت باللغة العربية ، تمييزًا لها عن

المخطوطات الإسلامية ، وهي النوع الثاني ، التي تُعنىٰ بالتراث الإسلامي ، لكنها كُتبت بلغة غير العربية ، كالتركية (العثمانية) ، والفارسية ، والأوردو (في الهند وكشمير) ، المحتوية على ألفاظ عربية غير قليلة ، وحروفها حروف اللغة العربية .

فمعهد المخطوطات الذي أنتمي إليه منذ ما يربو على ثلث قرن ، والذي ٱنبثق عن جامعة الدول العربية ، سُمِّي معهد المخطوطات العربية ؛ لأنه معنيٌّ بالمخطوطات التي كتبت باللغة العربية .

أمَّا جمعية المكنز الإسلامي ، الملحقة بمركز متخصص بجامعة كيمبردج ؛ وكذلك مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، في لندن ، فهما تُعنيان بالمخطوطات الإسلامية التي كُتبت بالحرف العربي ، دون النظر إلى لغتها ، وبهذا تدخل المخطوطات العربية في حوزة الرعاية والاهتمام .

(٢)

صناعة الورق :

كُنَّا ، في الفصل الأول ، قد مَسَسْنا هذا الموضوع مَسًّا رفيقًا ، حين جاء عَرَضًا أن صناعة الورق عند العرب والمسلمين في القرون الهجرية الأولى ، وانتشارها في أنحاءٍ شتَّىٰ من ممالكهم شرقًا وغربًا ، كانت من دواعي نجاح الحضارة العربية الإسلامية ؛ لأنَّ الورق مادةٌ أساسية لنشر المعرفة ، وبها تُثرىٰ حركة التأليف والاستنساخ .

على أننا الآن سنبسط القول فيها بعضَ الشيء ، وفاءً بمقتضىٰ الحال .

كان العربُ في صدر الإسلام يكتبون على جريد النخل ، والحجارة والعظام والفَخَّار ، والرَّق من جلود الحيوانات . ثم عرفوا بعد ذلك ورقَ البَرْدي ، الذي يُصنع من نبات البَرْدي ، النَّامي على ضفاف نهر النيل ومستنقعاته ، بمصر .

وفي العهد العباسي ، في زمن أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) ، الخليفة الثاني ، وباني بغداد ، كانوا يأتون بالورق من سَمَرقَنْد ، فيما وراء النهر ، شرقًا ، يُنقل على ظهور الإبل في قوافل . وكانت سمرقند قد أخذت هذه الصناعةَ عن الصين ، فالصينيون أساسُ صناعته في العالم .

وقلنا إن الحضارة الفكرية نَمَت متدرِّجة منذ أواخر العهد الأموي ، إلى أن بلغت زَخْمَها في عهد المأمون ، ومن بعده أخوه المعتصِم ، مرتبطةً بصناعة الورق في بغداد .

لقد انتقلت صناعة الورق إلى بغداد بانتقال أَسْرَىٰ صينيين إليها في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) . وتعلّم العربُ منهم تكوين عجينة الورق من نباتات جافّة ، وخِرَق بالية ، بِمُعَدَّات بسيطة غيرِ معقّدة ، وُفِّرت للأسرىٰ في بغداد ، وبهذا استطاع العرب في عهد هذا الخليفة من إنشاء أوَّل معمل للورق سنة (١٧٧هـ = ٧٩٣م) .

وعرفوا في بغداد صناعة الورق مسطَّحًا على هيئة كتاب . وكان قبل ذلك تُلَفّ الجلودُ المكتوب عليها في لُفافات .

ونَمَت ، بتوافر الورق ، النهضةُ العلمية في مختلِف العلوم ، وكثرت دكاكين الوِراقة والورَّاقين ، وبجوارها مكتبات صغيرة لبيع الكتب . كما كثرت المكتبات الخاصة والعامَّة التي تحتوي على مئات المخطوطات .

وجَوَّد العربُ من عجينة الورق وحسّنوها ، بٱستخدام مواد أفضل ممَّا كان يفعله الأسرىٰ الصينيون . وانتقلت هذه الصناعة ، بالتالي ، إلى دمشق ومصر والقيروان ومُرَّاكش وطليطلة بالأندلس ، الذي أنشيء معملُه سنة (٥٤٥هـ = ١١٥٠م) وتَبِعَها بلنسية وشاطبة وغيرها .

وبرعوا في صناعة أنواع الورق المختلفة . وذَكر النديم (ت ٣٨٠هـ = ٩٩٠م) - الذي كان وَرَّاقًا في بغداد - أنواعًا كثيرة منه ، في كتابه المشهور « الفهرست » . وٱستبدل أهلُ مصر هذا الورقَ بورق البَرْدي ، والرقوق ؛ لأنه أقلُّ ثمنًا ، وأيسرُ في الكتابة عليه .

ومن الأندلس عَرف الأوروبيون الورق لأول مرَّة ، وبدأوا يشترونه من معاملها . وكانوا قبل ذلك يكتبون على ألواح الخشب المغطّاة بالشمع ، والرُّقوق الجلدية . وكثرت معامل صناعة الورق في الأندلس لتنتج كميات تكفي حاجةَ البلاد ، وما يُباع إلى أوروبا . وكانت إيطاليا وفرنسا هما السَّبَّاقتان لشرائه ، وكان الأندلسيون قد أدخلوا في عجينة الورق القطنَ ، فأصبحت أنواعُه منها ذات جَوْدَة متميِّزة .

وأنتج العرب أنواعًا مختلفة من الحبر ، ولدينا عددٌ غيرُ قليل من المخطوطات التي تبيِّن صناعته بألوانه المتنوِّعة ، يُضاف إليه الصمغ لتثبيته على الورق ، وحتى لا تنتشر الكتابةُ عليه .

وكتبوا بساق من الغاب ، يُبْرَى بريًا مائلاً ، وتنوَّعت « القَطَّات » لتنويع الخطوط من نَسْخٍ وثلث ورُقعة وديواني وفارسي ...

(٣)

الوِرَاقة والنِّساخة :

إن الحركة العلمية التي انتشرت بالتأليف والترجمة ، مع توفر الورق بصناعته محليًا ، ولَّد مهنة جديدة ، هي مهنة الوِرَاقة ، ويُدْعى الذي يقوم بها ورَّاقًا ، وجمعها ورَّاقون . وكان عمل الورَّاق بيع الورق بعد تقطيعه تقطيعًا مناسبًا لمن يرغب في الشراء ، وكذلك بيع أدوات الكتابة وموادها المتمثِّلة في الأقلام ، والحبر بأنواعه .

أما عملُه الرئيس فهو نسخُ المخطوطات ومُراجعتُها وتصحيحُها ، ثم جمع هذه الأوراق بين دفَّتي غلاف من الجلد ، وإذا طُلب منه زخرفتُه وتذهيبه قام بذلك .

وقد قيل إن عددَ دكاكين الوَارَّقين وبائعي المخطوطات المنسوخة بلغ في بغداد - في عزِّ الحركة العلمية ، في العهد العباسي (القرن الثالث الهجري) - نحو مئة دكان في أسواق خاصة بهم .

ولكثرة الإقبال على بيع المخطوطات ، كان الورَّاقُ يستخدم عددًا من النَّسَّاخين . أما هو فكان يحرص على أن يخصَّ نفسَه بنَسْخِ الكتاب النادر والنفيس منها .

وكانت المخطوطات الجاهزة للبيع تُرَصُّ على الرفوف نائمة فوق بعضها ، لا قائمة كما نرصّها في أيامنا هذه .

ولم تكن مهنة النِّساخة مُمْتَهنة ، بل كان يُشترط في الناسخ أن يكون على علم بما يَنسخ ، وأن يَتنبَّه إلى ما يقع أثناء النِّساخة من تصحيف وتحريف . وعلى دراية بضبط النصّ ضبطًا صحيحًا . بالإضافة إلى أن يكون حسنَ الخط مُجوِّدَه . وهي مهنة - بالتالي - تُفيد الناسخَ وتُطلعُه على كثيرٍ من العلوم .

ووصل إلينا أن أبا حَيَّان التوحيدي (ت على الأرجح ٤١٤ هـ = ١٠٢٣ م) اتخذ النَّسْخَ حِرْفة ، وهو من العلماء الكبار حارَ الباحثون في عدِّه أديبَ الفلاسفة ، أو فيلسوف الأُدباء ، فدعي بالاثنين معًا . واشتهر بنَسْخ كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ = ٨٦٨ م) وإتقانها ؛ لأنه كان على دراية بما اعتورها من أخطاء النُّسَّاخ .

ومنهم أيضًا ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) الذي عمل ناسخًا بالأجر . وهي مهنة فتحت له أبوابَ العلم على مصارعيها ، فألّف من الكتب القيمة ما جعله في زمرة العلماء الكبار .

وأصبح الخطُّ صناعة يشترك المحترفون من الخطاطين فيها ، وراجت الكتب

التي كانوا يكتبونها . نذكر منهم ابنَ البَوَّاب (ت ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م) الذي يُعَدّ أحد القمم الثلاث في تطوير الخط وتنميقه وهندسته ، مع ابن مُقْلَة الذي ظهر قبله ، وياقوت المستعصمي الذي جاء بعده .

وأصبحت دكاكين الورَّاقين بمثابة مراكز ثقافية ، يرتادها أهلُ العلم والأدب ، كانت فيها مجالسُهم ومناظراتهم . ونعلم أن الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) كان لا يستطيع شراء الكتب ، فيستأذن الوَرَّاق في أن يبيت في دكَّانه للاطّلاع والقراءة ، وكان يُحضر معه سراجَه ، وينهل طَوَال الليل من هذه المخطوطات . وقد أمدَّهُ دكانُ الوَرَّاق بزادٍ وافرٍ من العلم والمعرفة .

ولم تعدم ساحةُ الوِراقة الواسعة من نُسَّاخٍ غشَّاشين ، يؤدون أعمالهم بعيدًا عن الأمانة ، والإتقان ، واتخذوا من ألوان الغِش طرقًا تؤدي بهم إلى اختصار الوقت ، وإنجاز العمل ، تعجّلاً إلى الحصول على الأجر .

ولكنّ هذه الساحة كانت تصطبغ ـ عمومًا ـ بصبغة الأمانة ، وأداء العمل من تجويد الخط وضبط النصِّ ومراجعته وتصحيحه . ولو شئتُ أن أنهي حديثي عن الوِرَاقة ، بما اتَّصفت به من قدْسية ، أذكر أن العُرْفَ كان يقضي أن يتوضَّأ النُّسَّاخ قبل الشروع في النَّسْخ .

(٤)

المكتبات الزاخرة بالمخطوطات وخدمتها :

لا شك في أن المخطوطات العربية والإسلامية تكشف عند الرجوع إليها عن النشاط الفكري لهذه الأُمَّة إبَّان نهضتها . وتعكسُ أعظمَ انطلاق للعقل البشري في مختلف العلوم . وبالتالي تبين مدى مساهمتها في رَكْب الحضارة الإنسانية .

وبالرغم من عبث الزمن بمئات الآلاف من المخطوطات ، فالحقيقةُ التي

لا مِراءَ فيها أن ما وصل إلينا منها كثير ، موزع في مكتبات الأقطار العربية ، والعالم الإسلامي ، والدول الأجنبية .

وفي الأقطار العربية الآن من المكتبات العامة ما هو زاخر بالمخطوطات ، نذكر منها أكثرَها شهرة وذيوعًا : الخزانة العامة (الوطنية) بالرباط ، ومكتبة جامع القرويين بفاس ، ودار الكتاب الوطنية بالجزائر ، ودار الكتاب الوطنية بتونس ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة ، والمكتبة الظاهرية بدمشق ، ومكتبة الأوقاف بحلب (نقلتا إلى مكتبة الأسد الوطنية بدمشق) ، والمتحف العراقي ببغداد ، ومكتبة الحرم المكي ، ومكتبة عارف حكمت ، والمكتبة المحمودية بالمدينة (نقلتا إلى مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة ، التي بنيت مكان سقيفة بني ساعدة التاريخية) ، ومكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، ودار المخطوطات بصنعاء أيضًا ، ومكتبة الأحقاف في مدينة تَرِيم بحضرموت ، وغيرها كثير .

أما في العالم الإسلامي ، فمنه تركيا : ومكتبات إستانبول الزاخرة بالمخطوطات النفيسة عددها بالمئات . وفي باكستان مخطوطات كثيرة موزعة في كل مكان ، ومثلها الهند التي تحتوي مكتباتها العامة والخاصة على كثير منها في دلْهي وحيدر آباد ومَدْارس وكَلْكتَّا وبَتْنه ، وفي سراييفو بجمهورية البوسنة والهِرْسك مكتبات كثيرة ، أشهرها مكتبة غازي خسرو بك الإسلامية ، ومكتبة معهد الدراسات الشرقية .

وكذلك لا تخلو بعض البلدان الإفريقية من المخطوطات المُهِمَّة كنيجيريا والسنغال .

أما في قارتي أوربا ، وأمريكا ، نذكر روسيا في معهد الدراسات الشرقية بمدينة بطرس بيرج (لينين جراد سابقًا) ، ويريفَان في الجمهورية الأرمنية ، والمكتبة البريطانية (المتحف البريطاني سابقا) في لندن ، والمكتبة الوطنية في باريس ،

ومكتبة أمبروزيانا في مدينة ميلانو (إيطاليا) ، والفَاتيكان في روما ، ومكتبة الدولة في برلين (ألمانيا) وجامعة لَيْدن (هولندا) ، ومكتبة إسكوريال في إسبانيا ، ومكتبة شستر بتي في مدينة دَبْلن (أيْرلندا) . وأخيرًا الولايات المتحدة الأمريكية نذكر منها ـ في هذا الحديث ـ مكتبة الكونجرس في واشنطون ، ومكتبة جامعة برنستون .

أما خدمة هذه المخطوطات فميدانه واسع ، ولا بد أن يكون لدينا خُطَّة استراتيجية لإنقاذ هذه المخطوطات ، عربية وإسلامية ، من أخطارٍ وإهمال تعرضت لها في القرون الأخيرة .

وحقٌّ عليّ أن أوجز لكم أنواع هذه الخدمات التي ينبغي أن تُسْدَى لها ، مرتَّبًا إيّاها على وَفْق الأَوْلوية :

١ ـ **في البدء** : ترميم وصيانة المخطوطات وتجليدها وحُسن حفظها في بيئة صحية ، فالرطوبة والحرارة الشديدة تهددها بالاندثار . وبالمناسبة أذكر غَيْرةَ جمعية المخطوطات الإسلامية (المكنز ، وهو فرعها في القاهرة) حيث بادرت بمشروع جليل ، وهو ترميم وصيانة مخطوطات دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

٢ ـ **تصوير هذه المخطوطات** على مايكرو فيلم (٣٥ ملم) ، و C. D لحفظ المادة العلمية من التلف ، وتمكين العلماء والباحثين من الاطلاع عليها ، أو تصوير نُسَخ منها .

٣ ـ **فهرسة هذه المخطوطات** ، على المنهج الوصفي ، وإشاعتها بإصدارها في فهارس ورقية ، وفي الـ Inter Net . وهو عمل مُلِحٌّ ، خاصة إذا علمنا أن ثلثَي المخطوطات في العالم لم يُفهرَس بعد ، ودون فهرستها تظل المخطوطات في المكتبات العامة والخاصة سِرًّا لا يُستطاع معرفتُها أو الوصولُ إليها إلّا بطريق

الصدفة أو الحظّ .

٤ ـ تحقيق هذه النصوص ، في مختلف العلوم تحقيقًا منهجيًّا ، وكلٌّ محقق وَفْق تخَصّصه .

٥ ـ دراسة هذه النصوص واستخلاص الفوائد منها ، والكشف عن دور هذه الحضارة العربية والإسلامية الحقيقي ، بين الحضارات السابقة واللاحقة .

إن دراسةَ هذه النصوص بعد تحقيقها تُمثِّل قوةَ دَفعٍ للدراسات العربية الإسلامية في العصر الحديث .

إن الاشتغالَ بالتراث عمومًا يُمثِّل قوةً دافعة ، تبعث في نفوسنا الثقةَ بالذات ، وتساعدها ، في الوقت نفسه ، على تبيّن مواطن الضعف ومواطن القوة في حياتها . فخدمة المخطوطات على الوجه الذي ذكرناه ، لا تُمثِّل رَجْعة إلى الوراء ، بل هو قوة دفع إلى الأمام ؛ لأن فيه من الذخائر والتجارب ما ينبغي أن يوصَل بالحاضر المُفضي إلى المستقبل .

* * *

الفَصلُ الثَالِثُ

تَوَزُّع المخطوطات العربية والإسلامية في العالَم

(١)

توطئة :

يقفز أمامي سؤال كبير يَفرض نفسَه ، ويُلحُّ في السؤال ، وهو : كيف وصلت هذه الألوف من المخطوطات إلى أوروبا وأمريكا ؟ ذلك العالَم البعيد عن ميدان النشاط الحضاري العربي والإسلامي ، في عصور توجَّهوا فيها إلى العلم والتأليف . واطَّلعوا على إنجازات مَن قبلَهم ، فهضموها وتمثَّلوها ، ثم قدّموا حضارةً ذات دفقة قوية ، فيها إقرار لبعض ما سبق ، وفيها تعديل وتصحيح ، وفيها جديد مُضَاف شأنُ جميع الحضارات السابقة واللاحقة .

على أن واقع المخطوطات العربية والإسلامية في وقتنا هذا ، موزَّعٌ في أقطار العَالَم . وهي منتشرة عَبْر أربع قارات ، من المغرب الأقصى حتى باكستان ، ومن تركيا حتى الصومال ، ومن أوروبا حتى أمريكا . والحقُّ أنه يمكن تقسيمُ هذه المناطق جميعِها إلى ثلاث دوائر واضحة المعالم والحدود : أولها : الدائرة العربية . وثانيها : الدائرة الإسلامية . وثالثها : الدائرة الأجنبية .

وهنا ينبغي أن ننبّه إلى أن الصِّلةَ بين الدائرة الأولى والثانية صلةٌ قوية ، ليس من السهولة بمكان الفصل بينهما . فمنذ أن خرج العرب من جزيرتهم ، يحملون دينهم الجديد ، وفتحوا هذه المناطق الشاسعة ، شرقًا وغربًا ، ودخل أهلُها في الدين الحنيف ، وشاعت اللغةُ العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ بينهم ، وأصبحت لغةَ التدوين والتأليف والعلم ، وانتشرت مهنة الوِراقة والنِّساخة ، وعُرِفَ الورَّاقون ، وشاعت المدارس ودور العلم ، ووُجدت في هذه المناطق جميعِها ، عربيِّها وإسلاميِّها ، المخطوطاتُ في كلِّ موضوع وفنّ . مع التّنبّه أن كثيرًا من العرب بعد الفتوح اختلطوا بالأقوام التي دخلت في الإسلام ، وأن كثيرًا من العلماء المنسوبين

إلى مدنٍ غير المدن العربية كالهَمَذَاني والزَّمخشري والبِيْرُوني والرَّازي ، وغيرهم ، إنما نُسبوا إليها لنشأتهم فيها ، وليس معناه أنهم يعودون بالضرورة إلى أصول غير عربية .

(٢)

أولاً : الدائرة العربية :

من الطبيعي أن نجد في أقطار العرب المختلفة مخطوطات مبثوثة في العواصم والقرى وبيوت العلماء المشتغلين بالتأليف والتصنيف . وكانت المعلومات لدينا أن تجمُّعَها الأكبر في بعض العواصم ، أو بعض الأقطار دون الأخرى . وكنا نظن إلى عهدٍ غيرِ بعيد أن ليبيا والجزائر مثلاً تقلّ فيهما المخطوطات قلّة واضحة ، إلى أن اتضح أن المناطق النائية منهما ، في الصحراء والواحات في الجنوب تحتوي على مخطوطات لا حصر لها ، وكأنَّ أهلَها هربوا بها من سواحل بلادهم حيث احتلَّها الأغراب ، وهدّدوا ثقافتهم وتراثهم بالقوة والقهر .

وحين نطوف في هذه الأقطار نرى أن **مصر تتصدّر المرتبة الأولى في اقتناء المخطوطات** ، ففيها نحو مئة ألف مخطوطة ، وأشهر مكتباتها دار الكتب المصرية ، والأزهرية ، وجامعة القاهرة ، وفي الإسكندرية مكتبة البلدية (آلت إلى مكتبة الإسكندرية) ، وجامعة الإسكندرية . والمسجد الأحمدي في طنطا (آلت إلى مخطوطات الأوقاف المركزية بمسجد السيدة زينب بالقاهرة) . وفي الزقازيق ، ورفاعة الطهطاوي في سوهاج ، وغيرها من المكتبات التي فُهْرِسْت في العقود الأخيرة. ولدىٰ الأفراد والأسر مئات من المخطوطات لا ندري عن أكثرها شيئًا .

ويمتلك العراق أيضًا نحو مئة ألف مخطوطة ، نصفها تقريبًا في دار المخطوطات في بغداد ، وهي المكتبة المركزية والتي كانت في حوزة المتحف العراقي ، والباقي في

نحو مئة مكتبة عامَّة وخاصَّة في المدن الأُخرى . وفي أوقاف بغداد ألوف منها ، وقد وصل إلينا أنها تعرَّضت للحريق في أحداث العراق الأخيرة .

وفي السعودية أكثر من سبعين ألف مخطوطة في مدينة الرياض وغيرها ، تمتلكها الجامعات ومراكز البحوث ومؤسسات علمية . وقد اشترت عُظْمهَا من تجّار المخطوطات في العقود الثلاثة الأخيرة ، وبهذا دخلت السعودية ودول الخليج العربي في منافسة مع الدول الأجنبية في شراء المخطوطات .

وفي المغرب الأقصى ما يزيد عن ثلاثين ألف مخطوطة ، وأشهر مكتباتها الخزانة العامة (الوطنية) والحَسَنية (الملكية) في الرباط ، والصُّبَيْحية في سَلاَ ، وجامع القرويين في فاس ، والجامع الكبير في مكناس ، ومكتبة ابن يوسف في مُرَّاكُش ، ومكتبة الزاوية الحمزاوية في سيدي حمزة ، ودار الكتب العامرية في تمغرات . هذا غير ما في صحراء المغرب ممَّا نجهل أكثره .

وفي سوريا احتوت مكتبة الأسد الوطنية بدمشق على نحو أربعة عشر ألف مخطوطة جُمعت من دار الكتب الظاهرية بدمشق ، والأوقاف في حلب ، ولدى الأُسَر في المدن السورية ما هو بالمئات ، وبعضها بالألوف .

وفي دار الكتب الوطنية في تونس العاصمة نحو خمسة وعشرين ألف مخطوطة ، غير ما في المدن الأخرى من المكتبات العامة .

وفي اليمن أكثر من عشرين ألف مخطوطة في صنعاء ، والروضة من ضواحي صنعاء ، وتَعز وزَبِيد وحَجَّة ، وتَرِيم في حضرموت حيث مكتبة الأحقاف الشهيرة ، غير آلاف في البيوت لا إحصاءَ لها ولا ضابط .

وفي موريتانيا نحو أربعين ألف مخطوطة ، في نحو ثلاث مئة مكتبة في نواكشوط العاصمة ومدينة تشيث وغيرهما ، وأغلبها مكتبات خاصة ، وهي في

حالة متدنية للغاية ، وتحتاج إلى حملة شاملة لصيانتها وترميمها وتجليدها وحفظها في ظروف صحية ملائمة ، وسرعة تصويرها .

وكذلك في الجزائر وليبيا والصومال والسودان والكويت وقطر وعُمَان والإمارات ، ممّا لا نَرىٰ تفصيله في هذا المقام .

وفي ختام هذه الدائرة لا أنسى **مخطوطات فلسطين** التي تعرّضت ، وما زالت تتعرض للتخريب الصهيوني ، أو النهب والنقل إلى الجامعة العِبْرِية ، وتحتاج إلى خطّة قومية لإنقاذ مخطوطات مدينة القدس ، ومدينتي عكّا ويافا المحتلتين ، على وجه الخصوص .

(٣)

ثانيا : الدائرة الإسلامية :

تتصدر **تركيا** هذه الدائرة بجدارة ، فقد قُدِّر عدد مخطوطاتها نحو مئتي ألف مخطوطة ، أكثرها في إستانبول وأشهر مكتباتها السليمانية التي ضمَّت بين جوانحها عشرات المكتبات . والبقية في مدنٍ أخرى مثل بورصة وقونية ومغنيسية وأنقرة وأدرنة . وفي مصدر آخر أن إستانبول تضم ثلاث مئة ألف مخطوطة ، أي نحو ١٠٪ من المخطوطات في العالَم ، على تقدير أنها ثلاثة ملايين مخطوطة .

ولا بدَّ أن ننبّه هنا أن أكثر مخطوطات تركيا قد نُقلت إليها بقوة النفوذ ووضع اليد إبّان الحكم العثماني للأقطار العربية نحو أربعة قرون . ولا بُدَّ أن ننبّه أيضًا أن تركيا هي المثل الصارخ لامتناعها عن تصوير مخطوطاتها لمعهد المخطوطات العربية ،أو لأيٍّ من الدول العربية . ويبدو أن الفرصة سانحة للمراكز العربية الخاصة للتصوير منها لقاء دعمها بالأجهزة والمعدّات ، ويحتاج هذا الأمر إلى تنسيق عربي للوصول إلى إنجاز أكبر ، بعيدًا عن تكرار الجهود والنفقات .

وفي إيران مئتي ألف مخطوطة ، وعُدَّ في طهران العاصمة نحو ٣٥ مكتبة تحتوي على مخطوطات عربية . ويُذكر من مدنها الأخرى ، ذات المخطوطات ، مَشْهَد .

وفي الهند ، التي نشأت فيها ، في عصور ماضية ، دولٌ إسلامية ، وبالتالي انتشر الإسلام واللغة العربية ، عدد وفير من المخطوطات في المدن والقرى ، بعضها في مكتبات عامَّة تتبع الحكومة المركزية في دلهي ، ومكتبات تتبع حكومات الولايات ، ومكتبات وقفية تتبع هيئات إسلامية عامَّة ، ومكتبات لها صفة المِلكية الخاصة . وفي عام ١٩٨٤ م زرتُ خمس مدن هندية متباعدة ، هي دلهي وحيدر آباد الدَّكن ومَدْراس وكَلْكتَّا وبَتْنه ، ودخلتُ سبعَ عشرة مكتبة ، تحتوي على إحدى وأربعين ألف مخطوطة . هذا غير مدن أخرى كمدينة تونك وديوبَنْد ورامبور وعليكره .

وفي جمهورية أوزبكستان الإسلامية التي استقلت بأخَرَة عن الاتحاد السوفيتي ، معهد أبي الرَّيحان البِيْرُوني للدراسات الشرقية في طشقند . وهو الذي يحتوي - حين زرته عام ١٩٧٧ م - على نحو سبعة عشر ألف مخطوطة .

ويُذكر أن المُخبَّآت من المخطوطات في عهد الاتحاد السوفيتي قد بدأت تظهر بعد الاستقلال عنه ، وبدأ محصول هذا المعهد يزداد شراءً أو إهداءً . هذا غير ما في مدن وقرى أخرى كبُخارىٰ وسمرقند .

ومثلها جمهورية أذربيجان ، ومركزها باكو ، **وجمهورية طاجيكستان** ومركزها دوشَنْبِه ، كلها تحتوي على الألوف من المخطوطات . وكذلك **باكستان وأفغانستان** في قارَّة آسيا ، **ونيجيريا والسنغال** وغيرهما في قارة إفريقية .

وأختم هذه الدائرة بذكر **جمهورية البوسنة والهِرْسِك الإسلامية** الواقعة في

قلب أوروبا ، والتي دخلت الإسلام في عهد الفتوحات العثمانية ، وٱنتشر فيها هذا الدين وٱستقرّ ، كما انتشر التأليف والتصنيف بالعربية من علماء المنطقة ، وكثرت المخطوطات التي كان يجلبها أهل البلاد عند الحج ، ومن تركيا ، ومن أشهر مكتباتها في مدينة سراييفو ـ عاصمة البوسنة ـ مكتبة غازي خُسْرو بك الإسلامية التي تضم بين جدرانها نحو خمسة عشر ألف مخطوطة إسلامية ، ثلاثة أرباعها مخطوطات عربية ، أما مخطوطات معهد الدراسات الشرقية في سراييفو البالغة نحو أربعة آلاف مخطوطة . فقد حرقها الصِّرْب عن آخرها ، بصاروخ ، في شهر مايو (أيَّار) عام ١٩٩٢م .

(٤)

ثالثا : الدائرة الأجنبية :

تنحصر المخطوطات ـ موضوع هذا الفصل ـ مكانًا ، في هذه الدائرة في قارَّتي أوروبا وأمريكا ، وزمنًا خلال أربعة القرون الأخيرة .

ذلك أن أهلَ الدائرة الأولى والثانية من عرب ومسلمين كانوا قد حافظوا على مخطوطاتهم قرابة عشرة قرون . وكانوا يعتنون بها ورقًا وأحبارًا ونَسْخًا وتصحيحًا وتجليدًا وزخرفة وحفظًا . ولم يفرّطوا فيها إلّا بعد الانحدار والتخلُّف ، وشيوع الأُميَّة والجهل بقيمة هذا التراث ، وما أودع فيه من فكر وإبداع .

وكانت حركة الاستشراق النشطة قد ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي ، موازية للنهضة الأوروبية الحديثة . وٱقترن ذلك عند الأوروبيين ببدء اقتناء المخطوطات للاطِّلاع على ما فيها ، رغبة في اللحاق بالعرب والمسلمين والتفوّق عليهم . وفي القرن السابع عشر الميلادي أُنشئت في البلدان الأوروبية منابرُ للدراسات العربية والإسلامية ، للمزيد من البحث والاطلاع على الحضارة

العربية الإسلامية ، لتفتح لهم آفاقًا علمية جديدة . ولمَّا تحوَّلت أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي إلى قوة عسكرية وسياسية كبرى ، واحتلت كثيرًا من الأقطار العربية والإسلامية ، ازداد اهتمام المستشرقين بالمخطوطات العربية شراءً ، أو استيلاءً عليها بالقوة والنفوذ ، ونشط نقل المخطوطات إلى بلادهم ـ بلاد الغُرْبة ـ بكميات ضخمة وبأسعار زهيدة .

أمَّا أمريكا فلم تدخل حَلْبة هذا المجال ، ولم تفتح أبواب الدراسات العربية والإسلامية لديها ، إلّا في وقت متأخر ، ومن ثمَّ لم تشتر المخطوطات ، إلّا في القرنين الأخيرين .

ومن قائمةٍ أمامي يتبين أن عشرين دولة أوروبية تقتني مخطوطات ، الأمر الذي يعني شيوع هذه المخطوطات فيها . وأن الولايات المتحدة الأمريكية هي الواحدة والعشرون التي اهتمت بالدراسات العربية الإسلامية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، وتبع ذلك ـ كما قلنا ـ اقتناء المخطوطات .

ولعلّ في صدارة هذه البلدان **روسيا** ، التي يقدِّر الخبراء أن مكتباتها تضمّ نحو أربعين ألف مخطوطة . وقَدَّر آخرون ضعف هذا العدد ، ومن أهمها معهد الدراسات الشرقية في مدينة بطرس بيرج (لينين جراد سابقًا) ، وجامعة بطرس بيرج ، ومكتبة الدولة (لينين سابقًا) في موسكو .

وبريطانيا تحتوي على نحو عشرين ألف مخطوطة ، ومن أهم مكتباتها المكتبة البريطانية (المتحف البريطاني سابقًا) في لندن ، والمكتب الهندي في لندن ، ومكتبة بودليانا في جامعة أكسفورد ، وجامعة كيمبردج ، والجمعية الملكية الآسيوية ، ومكتبة وِلْكَم لتاريخ الطب ، وجامعة ليدز ، وجامعة مانشستر .

وفي فرنسا نحو ثمانية آلاف وخمس مئة مخطوطة ، عُظْمُها في المكتبة

الوطنية في باريس .

وفي إيطاليا نحو سبعة آلاف وخمس مئة مخطوطة ، ومن أشهر مكتباتها : أمبروزيانا في مدينة ميلانو ، وغيرها في نابولي وفلورنسا وبالرمو (صقلّية) والبندقية وتورينو .

وفي الفاتيكان في روما نحو ثلاثة آلاف مخطوطة .

وفي ألمانيا نحو أربعة عشر ألف مخطوطة ، ومن أشهر مكتباتها : الدولة في برلين ، ومكتبة جوتا وتوبنجن وليبسك وغيرها .

وفي هولندا نحو خمسة آلاف مخطوطة ، ومن أشهر مكتباتها جامعة لَيْدِن .

وفي إسبانيا نحو ثلاثة آلاف مخطوطة ، منها ألفان في مكتبة إسكوريال في دير إسكوريال الذي يبعد عن العاصمة مدريد نحو خمسين كم .

وفي بلغاريا ما يزيد عن ثلاثة آلاف مخطوطة ، كلها في المكتبة الوطنية في العاصمة صوفيا .

وفي أيرلندا مكتبة شستربتي Chester Beatty في مدينة دَبْلن ، التي تضم نحو أربعة آلاف مخطوطة .

وفي النمسا نحو أربعة آلاف مخطوطة ، وعشرة آلاف بَرْدية عربية ، ومن أشهر مكتباتها : المكتبة الوطنية في فينّا .

أمّا الولايات المتحدة الأمريكية ففيها نحو ثلاثة عشر ألف مخطوطة ، وقيل نحو ثلاثين ألف مخطوطة ، ومن أشهر مكتباتها : جامعة برنستون المتضمنة مجموعة يهودا المشهورة البالغة نحو خمسة آلاف مخطوطة . وجامعة ييل Yale ، وجامعة شيكاغو ومكتبة الكونجرس في واشنطن ، والمكتبة العامة في نيويورك .

(٥)

أمثلة من الاستيلاء والشراء :

لقد سلك الأجانب شتَّى الوسائل والطرق للحصول على هذه الثروة ونَقْلِها إلىٰ بلادهم . سواء كانت هذه الطُرق شرعية أو غير شرعية . ونشط المستشرقون والدبلوماسيون والأثرياء منهم ، يساعدهم تُجَّار المخطوطات ، وجهل أصحاب هذا التراث ، وسوء أحوالهم المالية . وحينًا كانت تُنال إهداءً ، أو استيلاءً بقوة السلاح والنفوذ في فترة الاحتلال وانتشار الاستعمار .

وسنذكر بعض هذه الأحداث التي تكشف عن الأساليب التي اتّبعت لامتلاك هذه الألوف من المخطوطات خلال القرون الأربعة الأخيرة . وسيدهش القارئ ، إلى هذه الأحداث وكأنها حكايات مُوغلة في الخيال والمبالغة ، غير أنها ـ ونحن غُفْلٌ عنها ـ حقائق واقعة ، وأحداث ملموسة .

١ ـ وقفتُ في مكتبة أمبروزيانا (بميلانو ـ إيطاليا) حين زرتها في أواخر عام ١٩٨٩م ، علىٰ غير مخطوطة كتب عليها أنها جُلبت من واحة جعبوب الليبية ، أحضرها ضباط إيطاليون إبّان احتلال ليبيا عام ١٩١١م ، ومن هذه البابة ما زال الصهاينة يمارسون منذ نصف قرن حيال المخطوطات في فلسطين التخريب ، أو النهب .

٢ ـ زار المستشرق هنري جلازر اليهودي النمساوي ، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، اليمن وأقطارًا أخرىٰ ، غير مرّة ، وتخفَّىٰ بزيٍّ فقيهٍ عربي باسم الحاج حسين ، وجمع في رحلاته مئتين وخمسين مخطوطة باعها للمتحف البريطاني ، ومئتين وستًّا وأربعين مخطوطة اشترتها منه المكتبة الملكية ببرلين سنة ١٨٧٧ م .

٣ ـ طاف الكونت كارلو لندبرج السويدي ، المتوفى ١٩٢٤م ، في مصر

واليمن وأقطار عربية أخرىٰ ، وكان قد عمل قنصلاً للسويد في مصر ، واشترىٰ مئات المخطوطات ونقلها إلى بلاده .

٤ ـ استطاع المستعربون الروس ، ومنهم كراتشكوفسكي ، المتوفى ١٩٥١م ، أن ينقلوا نفائس المخطوطات من الجمهوريات الإسلامية التي كانت تنضوي تحت مظلة الاتحاد السوفيتي ، إلى معهد الدراسات الشرقية في بطرس بيرج . وكذلك زار هذا المستعرب لبنان وسوريا وفلسطين ومصر ، واشترى منها مخطوطات لصالح معهده .

٥ ـ استطاع المستعرب البريطاني سيرجنت R.B. serjeant الذي توفي بأخَرَة ، والذي أقام في اليمن سنين طوالاً ، أن ينقل كثيرًا من مخطوطات حضرموت وغيرها من المناطق اليمنية إلى جامعات إنجلترا ، ولمَّا تمكنت حكومة اليمن من إبعاده من بلادها قَرَّ في جُدَّة يستقبل المخطوطات التي يأتيه بها تُجَّارُها اليمنيون .

٦ ـ جَلَب القنصل البريطاني في بغداد (لنج Lynch) عام ١٨٦٠م ، وما بعده ، ثلاث مئة وعشر مخطوطات ، وجلب قنصل بريطاني آخر هو بج Budge، من الموصل ، مئة وثلاثًا وسبعين مخطوطة ، أودعت جميعُها المتحف البريطاني .

٧ ـ استطاعت بعثة بريطانية متخصصة في جَمْع نفائس المخطوطات أن تحصل من مصر ، عام ١٨٤٢م على قدر وافٍ منها ، من بينها ثلاث مئة مخطوطة مكتوبة على رَقّ غزال .

٨ ـ قَدِم الثري الأيرلندي شستربتي بلادنا عام ١٩١٣م بحثًا عن المخطوطات والتحف ، واستقرَّ زمنًا في القاهرة ، وتحلق حوله تُجَّار المخطوطات ، فاشترى منهم نفائسها ، وتجمع لديه نحو أربعة آلاف مخطوطة منتقاة ، وهي محفوظة في مدينة دَبْلن (أيرلندا) في مكتبة سُمِّيت باسمه .

٩ ـ لضائقة مالية سافر الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني ، وهو من الحجاز ، من المشتغلين بالعلم ، إلى لَيْدِن (هولندا) عام ١٣٠١ هـ (١٨٨٣م) ومعه ست مئة وأربعة وستون مخطوطة نفيسة آلت بالشراء إلى جامعة لَيْدن والعجب أن الجامعة لضائقة مالية أخرى باعت عام ١٩٠٠م جزءًا من هذه المخطوطات إلى جامعة برنستون الأمريكية .

١٠ ـ اشترت مكتبة الكونجرس في واشنطن مكتبة الشيخ محمد إمام المنصوري بكاملها . وهو من علماء الأزهر . وذلك في الأربعينات من القرن المنصرم ، وهي تحتوي على ما يزيد على ألف وخمس مئة مخطوطة ، عدا أُلوف المطبوعات .

١١ ـ أمر السلطان عبد الحميد الثاني في إستانبول بإهداء عُظْم مخطوطات الجامع الأموي بدمشق إلىٰ ألمانيا ، بمناسبة زيارة ولي عهدها الجامع عام ١٨٩٨م .

١٢ـ جمع الثري الأرمني فروج سلاطيان ، وهو حلبيّ الأصل ؛ مكتبة تضم مئة وستًّا وعشرين مخطوطة ، أهداها إلى مكتبة بريفان عاصمة الجمهورية الأرمنية ، ومعها فهرس مطبوع في بيروت في توصيفها ، كان قد صنعه د. صلاح الدين المنجِّد . بتكليف من صاحب المخطوطات قبل إهدائها .

١٣ ـ استأجر السلطان زيدان بن الملك أحمد المنصور السعدي عددًا من السفن لنقل مكتبة من مُرَّاكش إلىٰ ثغر أغادير بالمغرب ، والتي تبلغ نحو أربعة آلاف مخطوطة ، ففاجأها قراصنة الأسطول الإسباني ، واستولوا على المخطوطات عام ١٠٢١م هـ (١٦١٢م) ، وآلت كلها إلى مكتبة إسكوريال في إسبانيا ، وما زلنا نرى تملُّكات هذه المخطوطات للسلطان زيدان مقيدةً على ظَهْرِيَّاتِها (١) .

---

(١) مصطلح في علم المخطوطات ، مفردها ظَهْرِيَّة ، وهو أول ما يظهر لك من المخطوطة ، وهي صفحة العنوان .

١٤ ـ حصلت جامعة برنستون الأمريكية عام ١٩٤٣ م على نحو خمسة آلاف مخطوطة مقابل سبعة وعشرين ألف دولار دفعتها للتاجر يهودا ، وهو يهودي مغربي ، من أصل بغدادي ، وقد كان يجمع المخطوطات من بلادنا بقصد المتاجرة . وقد أَصدرت الجامعة فهرسًا خاصًّا بهذه المخطوطات في مجلد ضخم بعنوان مجموعة يهودا .

١٥ ـ نَصح المستعرب الإيطالي جريفييني Griffini التاجرَ الإيطالي كايروتي في الحُدَيِّدة باليمن أن يشتري المخطوطات بالحبوب التي كان يتاجر بها . واستطاع أن يجمع ألفًا وست مئة وعشر مخطوطات باعها إلى مكتبة أمبروزيانا في ميلانو (إيطاليا) . وجريفيني نفسه ـ الذي شغل منصب مدير المكتبة الملكية بعابدين في القاهرة ، في الأعوام من ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥م ـ رَحَّل من مصر وغيرها ألفًا ومئتين وإحدىٰ وأربعين مخطوطة إلىٰ مكتبة أمبروزيانا ذاتها .

وبعد :

فإن هذه الأعداد التي ذكرناها تقريبية ، ويختلف المُقدِّرون حولها اختلافًا كبيرًا . وطبيعي أن ينسحب هذا التقدير التقريبي على المخطوطات في أُوروبا وأمريكا ، فمن قائل : إنها ستون ألف مخطوطة ، والمُكْثِر جعلها مئةً وأربعين ألفًا ، أما مكتباتها في هذه الدول الأجنبية فحينا مئة وستون مكتبة ، وحينًا أربع مئة مكتبة .

وسوف لا تصح هذه التقديرات المتباعدة إلّا بعد أن تخضع جميعها إلىٰ الفهرسة . ونَشْر هذه الفهارس ، بما فيها المكتبات الخاصَّة ، التي ما زالت معلوماتُنا عنها ضئيلةً وناقصةً ، ونحن نعلم أن ثلثي المخطوطات كلِّها لم تخضع للفهرسة بعد .

ومهما يكن الأمر فإن مخطوطاتنا كثيرة كثرة مؤكَّدة ، علىٰ الرغم من أن ما

وصلنا منها لا يتجاوز - في رأي الباحثين المتخصصين - ١٠٪ من المخطوطات أصلاً ، وأن عُظْمها قد ضاع واندثر قديمًا في الحروب والتخريب والحرائق والتعصب الفكري .

ولا أرىٰ أن نُضَيِّع الوقت في محاولة استعادة هذا التراث الفكري من بلاد الغربة ، لأسباب منها أن القوانين الدولية (هيئة اليونسكو) لا تُعين أصحاب هذا التراث على استعادته ؛ لأنه غيرُ مُسَجّلٍ لدينا ، ولا معرَّف به ، ولا مفهرَس . والأفضلُ من هذا أن ننسق لتصوير هذا التراث وحفظه وإتاحته للمحققين والدارسين ، دون أن يتكرر العمل والنفقات في غياب التنسيق .

على أن نلتفت إلى ما لدينا منه ، وهو كثير ، يحتاج إلى فهرسة وتسجيل وتوثيق ، ثم صيانة وترميم وتجليد وتصوير ، قبل أن يندثر بحكم الزمن الممتد ، أو يتعرض للضياع بسبب الحروب والحرائق .

وينبغي أن يقترن هذا العمل بإصدار القوانين التي تحمي ما لدينا من التراث ، وتُوقف تيار المتاجرة به وتهريبه من مكان إلى آخر . والتعجل بفهرسته وتسجيله وتوثيقه يساعد على استقرار هذه المخطوطات في أماكنها ، ويُثبت مِلكيَّة أصحابه الأُصَلاء له .

* * *

الفَصْلُ الرَّابِعُ

(١)

فهرسة المخطوطات العربية والإسلامية

(١)

توطئة :

فِهْرِست كلمة فارسية تعني الكتاب الذي تُجْمَع فيه أسماء الكتب . وقد أخذها العرب ـ أول الأمر ـ علىٰ أصلها ، كما سمّىٰ النديم (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) كتابه الشهير « الفهرست » . وقد عرّبها العرب ، وأدخلوها لغتهم ، وحذفوا منها التاء فأصبحت فِهْرِس ، وبهذا خضعت لتصريف اللغة العربية ، واشْتُقَّ منها صِيَغٌ متعددة ، فقيل فَهْرَسَ يُفَهْرِسُ فَهْرَسَةً ، وجُمعت علىٰ فهارس .

وفهرسة المخطوطات خطوة ينبغي أن تسبق إحياء التراث العربي والإسلامي في مختلف العلوم ، بتحقيق نصوصها ودراستها .

وكنا قد علمنا في فصل سابق أن المخطوطات العربية والإسلامية وُجدت بالمئات والألوف مبعثرة في أنحاء شتَّىٰ من العالم ، في مكتبات عامة وخاصة . فكيف يتسنىٰ للباحث أن يجمع نسخًا مخطوطة مصوَّرةً محفوظة في أماكن متفرّقة ، دون أن يعود إلى فهارس المخطوطات التي تفيده في حصر هذه النُّسَخ ، وترتيبها علىٰ وَفْق قيمتها ومقدار نفاستها .

ويُلازم الفهرسة دائمًا تصنيف المخطوطات إلىٰ فنون وموضوعات ، فمخطوطات في التفسير ، وأُخرىٰ في الحديث النبوي ، والأدب ، واللغة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والطب والعلوم ، وغيرها .

أما الفهرسة الوصفية فهو إنجاز المادة التي تصف المخطوطة توصيفًا كافيًا ، كبيان عنوانها ، ومؤلفها ، وسنة وفاته ، وأوّلها ، وآخرها ، وعدد أجزائها ، وأوراقها ، وسطور صفحاتها ، وقياسها طولاً وعرضًا ، وموضوعها ، وذكر المصادر التي توثّق عنوان المخطوطة ونِسبته لمؤلِّفها ، وغير ذلك من البيانات المفيدة في تقييم النُّسَخ ،

بالالتفات إلى خوارج النص كالسماعات والإجازات والتملُّكات إلخ ...

وبدون فهرسة المخطوطات وتصنيفها ، وطبع هذه الفهارس ونشرها ، وإدخالها في الحاسوب ، تظلّ في المكتبات ـ عامة وخاصة ـ سرًّا لا يُستطاع معرفتها ، أو الوصول إليها إلّا بطريق الصدفة ، أو الحظ ، وهو احتمال ضعيف جدًّا .

(٢)

المناهج :

لقد خضعت فهرسة المخطوطات إلىٰ سُبلٍ ومناهج عدّة ،كلُّ طريقة منها لها أسلوبها وحجتها في فوائدها . بمعنى أنها اتخذت أكثر من منهج ، وهي على وجه التحديد ثلاثة :

أولها : منهج الدرجة الأولى ، أو فهرسة القوائم أو الأدلة ، وهي التي تتكون من عناصر أساسية مشتركة بين جميع درجات الفهرسة علىٰ اختلاف أنواعها ، وهي الحد الأدنىٰ الذي ينبغي الحرص علىٰ استيفائه .

وهذه العناصر هي : عنوان المخطوطة ، اسم المؤلف ، ووفاته ، ونوع الخط ، وتاريخ النَّسْخ ، واسم الناسخ ، وعدد الأوراق ، وعدد السطور ، وطول المخطوطة ، وعرضها وتحديد المجلد إذا كان جزءًا من كتاب ، والمكتبة التي تحتفظ بها ، ورقمها فيها . وإذا خَلَت المخطوطة من سنة النَّسْخ يَحرص علىٰ ذكر ما بها من سماعات ، أو إجازات ، أو تملّكات مؤرخة ، لترشد إلى أقرب تاريخ لِنساختها .

هذا هو الحدّ الأدنى من عناصر الدرجة الأولىٰ ، لا ينبغي التفريط فيه ، وبالتفريط تصبح هذه القوائم مبتسرة وناقصة ، ولا تدل إلّا على وجود المخطوطة في مكان كذا ، وهو هدف غير كافٍ لهذا المنهج ، إذ لا بدَّ أن يصحبه شيء من توصيف النسخة الذي يميّزها عن نسخة أخرى ، حتى لا يجمع المحقق أو

الباحث ما هبَّ ودبَّ من النُّسَخ مصوَّرة ، ثم يكتشف بعد ذلك أن بعض هذه النُّسَخ لا تفيده في شيء ويأسف علىٰ ما بذل من جهد ووقت ومال لتصويرها .

والحدّ الأدنىٰ من التوصيف يُمْكِّن المحقق من جمع النُّسَخ الضرورية والكافية لإخراج النص كما أراده مؤلِّفه صحيحًا ومبرَّءًا من الأوهام والأخطاء ، فيعين الدارس علىٰ دراسته .

ومثال هذه الدرجة من الفهرسة الملتزمة بالحدِّ الأدنى من العناصر ، فهرس مخطوطات شستر بتي في دَبْلن ، أَيْرلندا الذي وضعه الأستاذ المعروف آربري ، وصدر في ثمانية أجزاء ، من سنة ٥٥ ـ ١٩٦٦م ، ووُصف فيه نحو ٢٥٠٠ مخطوطة .

وثانيها : منهج الدرجة الثانية ، أو الفهرسة الوصفية (الوسط) : وهو المنهج الذي يُعنَىٰ بذكر عناصر الدرجة الأولىٰ بشيء من البسط ، بهدف إظهار المزيد من تميُّز هذه النسخة عن غيرها ، فلا يترك ملاحظة مفيدة إلّا يذكرها مثل العناية بسنة وفاة المؤلف ، أو ذِكر القرن الذي عاش فيه ، وبمكان النَّسخ الذي تمَّ فيه ، كذكر المدينة أو المدرسة أو المنزل .

ومن متطلبات هذا المنهج زيادة بعض العناصر التي تميّز هذه الدرجة عن سابقتها ، وأهمها الاهتمام بأول المخطوطة وآخرها ، تُقتطف من المخطوطة لأهداف نرغب في إظهارها ، ونتائج نودّ الوصول إليها ، ولهذا الاقتطاف ضوابط كنتُ وضعتها في بحث منفصل ، حتىٰ لا يكون عشوائيًا ، وأن يخلو من التطويل أو الاختصار ، ولا نرصد في أول المخطوطة البسملة والحمدلة المتكررة في كلِّ مخطوطة . أمّا إذا كانت حمدلة مميَّزة فينبغي رصدها ، كقوله : « الحمد لله ما أمكن الحمد ، وإلىٰ أن ينقطع العدّ » .

ومن ضوابط ما نقتطفه من أول المخطوطة ما يؤكد صحة عنوان المخطوطة

ومؤلفها ، وما له صلة برواية الكتاب ، ومنهج التأليف ، وسبب التأليف ، أو لمن أُلِّف ، مما يُفيد في توثيق الكتاب .

أما الاقتطاف من آخر المخطوطة ، فلا نطيل فيه ، ونكتفي بذكر الجُمل الأخيرة من كلام المؤلف التي تسبق - في العادة - تاريخ النَّسخ واسم الناسخ . ونهتم بما يُشعر أن الكتاب قد تمَّ وليس ناقصًا ، كما نهتم برصد سنة التأليف ، وغير ذلك مما هو مفيد في نهاية المخطوطات .

ومن العناصر الزائدة والمطلوبة لهذا المنهج الاهتمام بتعريف موجز بالمخطوطة ، وسنة التأليف ، ومصادر الترجمة والتوثيق .

ومثال هذا المنهج فهرس مجموعة جاريت في مكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية الذي صدر سنة ١٩٣٨م ، ووُصف فيه نحو ٢٢٥٠ مخطوطة ، ولا أنسىٰ فهارس معهد المخطوطات العربية في عمومها ، خاصة ما صدر منها في السنوات الأخيرة التي التزمت بهذا المنهج الصارم .

وثالثها : منهج الدرجة الثالثة ، أو الفهرسة التحليلية : وهي التي تهتم بذكر عناصر المنهجين السابقين ، ويزيد عليهما شيء هو الذي يميّز فهرسة هذه الدرجة عن سابقتيها ، وهو بيان تفصيلي وتحليلي لجميع مواد هذه المخطوطة من أبواب وفصول ، مع ذكر مكوِّنات مادة هذه المخطوطة ، وأحيانًا يُبيِّن المفهرِس موقع كلِّ مكوِّن ، بذكر رقم الورقة ، وجهها أو ظهرها ، وكأن الفهرسة هنا انقلبت إلىٰ دراسة المخطوطة .

ومثال هذا المنهج فهرس مخطوطات برلين (مكتبة الدولة) الذي وضعه المستشرق الألماني أُلْوَرْد Ahlwardt في عشرة أجزاء .

وواضح أن هذا المنهج يُخرج المفهرس عن نطاق عمله إلى ساحة الباحث ،

وهذه مسألة مهمة ينبغي أن ننبه إليها ، وهي أن نكون على دراية تامّة بالأهداف المبتغاة من الفهرسة ، وأن نعرف حدود عمل المفهرس ، لا نتجاوزها .

ومن مآخذ هذا اللون من الفهرسة أيضًا ، ما يحتاجه من جهد ووقت ، نحن في غنى عنه ، بإزاء ما نعلم من إشكالية فهرسة المخطوطات الحادّة ، وهي أن نحو ثلثيها لم يُفهرَس بعد . هذا بجانب نُدرة المفهرِس الكفء ، وفقدان التمويل المالي الكبير الذي يحتاجه نشر هذه المجلدات الضخام .

(٣)

ثقافة المفهرس وأدواته :

أُصارِحكم أن فهرسة المخطوطات من الأعمال العلمية غير الهيِّنة . وهي تختلف كثيرًا عن فهرسة الكتب المطبوعة . ويحتاج هذا العمل إلى صبر وأناة ، وإلى خبرة طويلة ، ودُرْبَة ماهرة . كما يحتاج إلى أرضية صُلبة ومتسعة من الثقافة التراثية ، العربية والإسلامية ، في مختلِف العلوم التي تساعد على التعرّف علىٰ المخطوطات عند فحصها من الداخل ، وقراءة نصوصها قراءة دارس مدقِّق ، خاصة إذا كانت المخطوطة : مبتورة الأول ، أو الآخر ، أو وُضع لها عُنوان بخط مغاير ، باسم خاطئ ، أو مُوهِم ، أو منسوبة إلىٰ غير مؤلِّفها .

وكم ظهر في الفهارس المطبوعة من الأوهام والأخطاء التي يكشفها الباحث المتخصص الواعي . نجد أوهامًا تثير الشفقة عند مفهرس أخذ بظاهر العنوان ، متعجِّلاً دون أن يدري محتوىٰ المخطوطة فيصنّفه تصنيفًا بعيدًا عن الصحة .

والأمثلة من أوهام التصنيف كثيرة ، أكتفي بذكر واحدٍ منها ، في هذا الفصل المكثَّف . يحضرني كيف وَضع مفهـرِس كتاب « المثلث » أو « المثلثات » لقُطْرُب (ت ٢٠٦هـ / ٨٢١م) في العلوم الرياضية مع الهندسة والحساب ، وهو ـ علىٰ

الصحيح ـ في اللغة ، كأن يقال : لهذه الورقة طولٌ وعَرْض ، وغرقت السفينة في عُرْض البحر . وذو الكرامة يدافع عن شرفه وعِرْضه ، فالعَرْض والعُرْض والعِرْض مما رصده العرب في اللغة وأسمَوْه وأمثاله بمثلث أو مثلثات .

ومن معارف المفهرِس التي ينبغي أن يكون على دراية بها : الطرق المختلفة في أداء تاريخ النَّسْخ في المخطوطات العربية . فإذا قلنا إن أهم عناصر الفهرسة ، أيًّا كان منهجها ، هو هُوِيَّة المخطوطة المكوَّنة من عنصرين : عنوان المخطوطة ، ومؤلِّفها . يتبعهما عنصر ثالث هو تاريخ النَّسْخ . وهو عنصر يُنظر إليه على أنه سيِّد هذه العناصر عند تقييم النُّسَخ ، وتحديد مكانتها من الصِّحة .

ويعرِض للمفهرِس طرق أخرىٰ في أداء تاريخ النَّسْخ غير الأرقام والأعداد الغبارية والهندية التي نعرفها . وأقدم هذه الطرق التي نشأت قبل الأرقام التي عرفها العربُ في أوائل الدولة العباسية ، هي ذكر تاريخ النَّسْخ بحساب الجُمَّل كأن يقول ناسخ : فرغتُ منها في : « غقنب » ، يقصد سنة ١١٥٢هـ في نظام حساب الجُمَّل .

وكذلك ظهرت طريقة متأخرة منذ القرن العاشر الهجري ، وهي الطريقة التي سمِّيت بالتاريخ الكِنائي . أما الباحثون الغربيون فسمَّوْها Dating by Fraction ، وترجمتها : التأريخ بالكسور .

وهي طريقة عويصة ، كأن يقول ناسخ : فرغت من نِساختها في اليوم السادس والعشرين من الشهر الرابع ، من شهور السنة السابعة ، من العَشْر الرابع ، من المئة الثالثة ، من الألف الثاني ، من الهجرية النبوية . ويقصد الناسخ في إلغازه هذا : في اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني ، سنة ١٢٣٧هـ .

وكذلك ينبغي على المفهرس أن يكون على دراية بمصطلحات علم المخطوطات ذات العلاقة المباشرة بالفهرسة ، التي تكوِّن معجمًا وفيرًا منها ،

من مثل : خَرْد المَتْن ، ونسخة خزائنية ، ونسخة ضمن مجموع (أو مجموعة) ، التعقيبة ، الطَيَّارة ، والظَّهْرِيَّة ، وغير ذلك .

ومن المعارف التي ينبغي أن يكون مُلِمًّا بها : أنواع الخطوط المختلفة ، ويشير إلى تغايرها إذا تعاور على المخطوطة غيرُ ناسخ . وكذلك معارف فنية أوَّلية تتعلق بالتجليد والتذهيب والنقوش ، والزخارف الهندسية والنباتية والكتابية .

وننبّه إلى مسألة مهمَّة ، وهي أن المخطوطات الإسلامية التي كُتبت بالحرف العربي ، لكنها باللغة التركية العثمانية ، أو الفارسية ، أو الأردية ، لا بدّ لمفهرِسها أن يكون على معرفة تامَّة باللغة التي كُتبت المخطوطة بها .

ومهما بلغت ثقافة المفهرس التراثية اتساعًا وعُمقًا ؛ لا بدّ له أن يستعين بأدوات عمل مُسْعفة ، تساعده في إنجاز العمل ، وهي مجموعة من المصادر الأساسية التي توثّق عنوان المخطوطة أو نسبتها إلى مؤلّفها ، أو تكشف عن غموض بعض المسائل في المخطوطة ، وتساعد على حلّ معضلاتها .

ومن هذه المصادر المشهورة كتاب « الفهرست » لِ النديم (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) . و « كشف الظنون » لِ حاجِّي خليفة ، وذيلاه : « إيضاح المكنون » ، و « هدية العارفين » ، لِ إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٩٢٠م) ، وكلها في ست مجلدات . و « الأعلام » لِ خَيْر الدين الزِّرِكْلِي (ت ١٩٧٦م) ، في ثمانية أجزاء . و « معجم المؤلفين » لِ عمر رضا كحالة (ت ١٩٨٧) في أربع مجلدات - في طبعته المتأخرة : الرسالة ، و « تاريخ الأدب العربي » ، لِ كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦م) بالألمانية ، ورمزه GAL ، في مجلدتين ، وثلاثة ملاحق [تمَّت ترجمته مؤخرًا] . و « تاريخ التراث العربي » لِ فؤاد سزكين (معاصر) بالألمانية ، والذي صدر منه حتى الآن اثنتا عشرة مجلدة [تمت ترجمة بعض مجلداته] .

ويمكن الرجوع ـ عند الضرورة ـ إلى أمَّهات كتب التاريخ والتراجِم والطبقات ، والمعاجم الجغرافية ، وفهارس المخطوطات المطبوعة .

(٤)

خاتمة :

هذه فصل مكثَّف ، لكنه شامل عن فهرسة المخطوطات . استعرضنا فيها أهمية هذا العمل للكشف عن تراثنا العربي والإسلامي ، بتوصيفه توصيفًا كافيًا ليعين المختصّين علىٰ تحقيقه ودرسه .

ثم تحدثنا عن مناهج الفهرسة بإيجاز ، ووقع اختيارُنا منها علىٰ ما يناسب ظروف المخطوطات التي تُعاني من الإهمال وعدم الفهرسة ، وأن ثلثيها غير مُفهرَس ، فضلاً عن المخطوطات الخاصة الحبيسة في البيوت ، التي لا نعلم عن كثير منها شيئًا ، واستقرَّ الرأي علىٰ أن نعتمد المنهج الوصفي (الوسط) الذي يُعدّ كافيًا تمامًا للمحققين والباحثين الدارسين .

وانتقلنا إلى الثقافة التراثية التي ينبغي للمفهرس الكفء أن يتسلَّح بها . وجعلنا مِسْكَ الختام المصادر والأدوات التي تكون مُعينًا له على أداء عمله .

حقًّا ، لقد أصبحت الفهرسة صَنْعة ، ينبغي أن يُدرَّب الشُّدَاة والشباب عليها ، في كلٍّ مكان عامر بالمخطوطات ، ويُشجَّع علىٰ قطع الحواجز التي تحول دون الإقبال عليها وإتقانها ، وبعث الهمة في نفوسهم لوضع حدٍّ لهذه المشكلة العضيبة التي تقابل تراثنا المجيد ، علىٰ أن تُشاع هذه الفهارس المطبوعة بين المختصين ، والجامعات ، ومراكز البحوث ، وكذلك إطلاق محتواها في « الحاسوب » .

* * *

الفصل الخامس

(٢)

فهرسة المخطوطات العربية والإسلامية

(١)

توطئة :

كان الفصل السابق القسم الأول من فهرسة المخطوطات العربية والإسلامية . وكنّا تحدثنا عن ماهية الفهرسة وأهميتها للمخطوطات ، وعرضنا لمناهجها المختلفة ، وتخيّرنا منهجًا أنسبَ ما يكون لوضع المخطوطات العربية والإسلامية الحالي . ثم فصّلنا القول في ثقافة المفهرِس وأدواته .

وأرجأنا عناصر بطاقة الفهرسة (القسم الثاني) إلى هذا الفصل .

(٢)

العناصر :

لو سُئلتُ ما هي أهم العناصر التي تُعنىٰ بها بطاقة الفهرسة ؟ أقول - بعد طول تجربة - إنها ثلاثة : الأول والثاني : يكشفان عن هُوِيَّة المخطوطة ، وهو عنوانها ، والثاني مؤلِّفها . أما الثالث فهو تاريخ النَّسخ ؛ لأنه المؤشِّر الحقيقي لقرب نِساخة المخطوطة ، أو بُعدها ، عن المؤلِّف ، وبالتالي سنة التأليف . ورغم أهمية هذا العنصر ٱعتيد أن تُوضَع سنةُ النَّسْخ مع اسم الناسخ ومكانه في موضع متأخر نسبيًّا في البطاقة .

وسنعرض لهذه العناصر عنصرًا عنصرًا :

١ - عنوان المخطوطة ، أو اسمها : نُثبت العنوان كما ورد في ظَهْرية المخطوطة . ويجب أن نتأكد منه بقراءة المقدمة ؛ لأن كثيرًا من المؤلِّفين يذكرون فيها اسم الكتاب ، بقوله : سمَّيته ، أو وسمته ، أو ترجمته بكذا ... ، وأحيانًا نجد اسم المخطوطة في آخرها ، كأن يقول المؤلِّف ، وأحيانًا الناسخ في حَرْد المَتْن : تمَّ كتاب كذا ... أو أُنجز كتاب كذا ...

وينبغي أن نتنبّه أن بعض عنوانات الكتب تكون واحدة ، وموضوعها واحد ، مثل كتاب « الأحكام السلطانية » لِأبي الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) ، ومثل هذا العنوان والموضوع لِأبي يَعْلي الفرّاء الحنبلي (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦م) .

وكذلك نرى مؤلَّفَيْن لمؤلِّف واحد ، يحملان العنوان نفسه ، واحدًا في النحو ، وآخر في الفقه ، مثل كتاب « الأشباه والنظائر » لِ السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥ م) يميَّز كل منهما بموضوعه يُوضَع بين حاصرتين .

٢ ـ اسم المؤلِّف : نذكر اسم المؤلِّف كاملاً ، وكنيته ولقبه وشهرته . فلا تذكر ألقاب التعظيم والتفخيم . ونتأكد من اسم المؤلِّف في مقدمة الكتاب إن وجد . ويحدث أن تتشابه بعض أسماء المؤلِّفين ، ويَفصل في هذا اللقبُ والشهرة . ويرتَّب اسم المؤلِّف مبدوءًا بالكنية أولاً ، ثم اللقب ، وٱسمه وٱسم أبيه وجدّه ، وأخيرًا شهرته . وبعضهم ، ـ خاصة المستشرقين ـ يبدأون باللقب ثم الكنية . والصحيح عندي أن يُبدأ بالكنية حتى لا يُفصَل بين لقبه واسمه ؛ لأنه به ألصق . ولا بدَّ أن نُلحق بٱسم المؤلف سنة وفاته بالهجرية (وربما ما يقابلها بالميلادية) . وإذا لم نجدها يُذكر القرن الذي عاش فيه . ولا يُعبأ بسنة الولادة ؛ لأن فيها ـ في الغالب ـ خلافًا كبيرًا . ومثاله : لِ أبي الصِّفا صلاح الدين خليل بن أيْبَك بن عبد الله الصَّفَدي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

ولا بدَّ من الرجوع إلى المصادر والمظانّ التي نتثبَّت منها هُوِيَّة المخطوطة عنوانًا ومؤلِّفًا ؛ توثِّق العُنوان ، وتوثِّق نسبته إلى مؤلِّفه . على ألَّا يُكثر المفهرس من ذكر هذه المصادر ، ويكتفي بالأساس فيها .

٣ ـ أول المخطوطة أو فاتحتها : المقصد فيه معرفة الجمل الأولىٰ من المخطوطة ، مستبعدين ما يتكرر ـ في الغالب ـ في كلِّ مخطوطة كالبسملة

والحمدلة . والمقصد الثاني التأكد من صحة اسم المخطوطة ومؤلِّفها ، والاهتمام بروايات الكتاب ، ومنهجه في التأليف ، وسبب تأليفه ، أو لمن ألَّفه ، مما يعين على صحة الكتاب وتوثيقه ، وينبئ به .

٤ ـ **آخرها أو خاتمتها** : لا يطيل في الاقتطاف منها . ونكتفي بذكر الجمل الأخيرة التي تسبق تاريخ النَّسْخ ، واسم الناسخ ، ونهتم بما يُشعر أن الكتاب قد تمَّ وليس ناقصًا ، كما نهتمّ بسنة التأليف ، وكل ما هو مفيد في نهاية المخطوطات .

٥ ـ **أجزاء المخطوطة ، وعدد أوراقها ، وعدد السطور ، وقياس الورق** : يَذكر المُفَهرِسُ الجزءَ الذي بين يديه للفهرسة ، إذا كانت المخطوطة ذات أجزاء ، على أن يميِّز بين الأجزاء إن كانت من صنع المصنِّف (المؤلِّف) أو الناسخ . وأن يَذكر الفصل أو الباب أو الترجمة التي يبدأ بها الجزء . وكذلك يَرصد الفصلَ أو الباب أو الترجمة التي ينتهي به .

ويَذكر عدد أوراق المخطوطة ، إذا كانت مرقَّمة ، والورقة تتكون من صفحتين ، وجه وظهر ، وإن لم تكن مرقَّمة ، فالأفضل ترقيمها بالأوراق لا بالصفحات .

ويَذكر عدد السطور في كل صفحة . وإذا لم يكن عدد السطور متساويًا ، يذكر أنها تقع ما بين كذا وكذا . وإذا كانت السطور متفاوتة تفاوتًا كبيرًا ، وعلى غير نظام ، يَذكر كلمة « مختلف » ، ويَرصد أيضًا قياس الورق طولاً وعرضًا أما نوعه فهو متعدِّد ، ومعرفة عمره يحتاج إلى فحص مخبريّ ، وخبرة فنية متقدّمة عالية .

٦ ـ **نوع الخط ، وألوان الحبر** : ينبغي أن يكون المفهرس ملمًّا بأنواع الخطوط ، فيذكر الخط الذي كُتبت به المخطوطة ، ويشير إلىٰ تغاير الخطوط في المخطوطة الواحدة ، إذا تعاقب عليها غيرُ ناسخ . ولا يُستحسن وصف الخط بالحسْن أو الجودة . ويُكتفىٰ مثلاً بواضح ، مجوَّد ، ويشار إلىٰ الكلمات إذا كانت

مشكولة ، أو كانت مهملة النَّقْط ، وإذا كان الخط مقروءًا أو غير مقروء ، كبير الحرف أو دقيقه . وإذا كانت عنوانات الأبواب والفصول بخط أكبر من خطِّ النصِّ . ويُشار إلىٰ النسخة إذا كانت بخط المصنِّف ، أو كتبت في عصره ، وحينئذٍ تكون للنسخة قيمةٌ عليا .

ونَذكر لون الحبر إذا كان هناك عدةُ ألوان ، كأن تكون عنوانات الفصول بلون أحمر ، أو يكون المتن بالأسود أو الأحمر ، والشرح بلونٍ مُغاير .

٧ ـ **اسم الناسخ وتاريخ النَّسْخ ومكانه** : نهتمُّ باسم الناسخ وعمله إن كان : عالمًا أو قاضيًا أو خطَّاطًا مشهورًا أو غير ذلك ، وقد نحتاج إلى العودة إلىٰ كتب التراجم والطبقات للاستقصاء عن الناسخ . ونَذكر تاريخ النَّسْخ باليوم والشهر والسنة ، ويميَّز بينه وبين سنة التأليف ، لا نخلط بينهما .

ويحدث أن تكون المخطوطة غير مؤرخة ، ويفيد عند تقدير القرن الذي كُتبت فيه ما عليها من تملُّكات ، أو عبارات وقف أو تحبيس ، أو سَمَاعات . والمفهرِس المُدرَّب يستطيع دون هذه الإشارات أن يقدِّر عصر كتابة المخطوطة ؛ لأن لكل عصر خَطـًا عُرف به . ويمكن للمفهرس المبتدئ أن يدرِّب نفسه على معرفة عصر الخطوط بالمشاهدة والمقارنة ، واستعراض الكتب التي عُنِيَتْ بترتيب أنواع الخطوط ترتيبًا تاريخيًّا .

٨ ـ **الغِلاف** : يعلِّق المفهرِس على غلاف المخطوطة التي يفهرسها ، ويذكر ما علىٰ الجلد من تذهيب أو كتابات منقوشة ، وزخارف هندسية أو نباتية ، وربما يُعين هذا الغِلاف على تحديد عمر المخطوطة إذا لم تحمل هذه المخطوطة تاريخ نِساختها وتفيد دراسة الجلود من الناحية الفنية تطور صناعة التجليد في العالم الإسلامي علىٰ مراحله المختلفة .

٩ ـ **مصدر المخطوطة** : يُبين المفهرِس في موضعه من البطاقة المصدرَ التي أتت المخطوطة منه ، كأن يكون شراءً أو هبةً أو وقفًا ، أو نقلت من مكتبة إلى أخرى ، على أن يبين رَقْم المخطوطة القديم ، لتعين الباحث عن المخطوطة التي يَسأل عنها .

١٠ ـ **يَرصد المفهرس ما تختصّ به المخطوطة التي يفهرسها** ، فيذكر حالتها ؛ جيدة أو سيئة ، بسبب رطوبة أو بلل أو أكل أرَضَة ، أو تقصّف أوراق . وما بها من طمس أو خَرْم (نقص) . ويعين علىٰ معرفة نقص المخطوطة في الداخل : « التعقيبةُ » ، وهي الكلمة التي توضع في ذيل الصفحة لتقابل الكلمة في الصفحة التالية .

ويَذكر كذلك إذا كانت النسخة مصحَّحة أو مقابلة على نسخة أخرى ، ومَن قابلها وصحَّحها ، أو كأن تكون النسخة قُرئت على المؤلِّف نفسه . وبيان ما على هوامشها من تعليقات أو تصحيحات ، خاصةً إذا كانت لعالمٍ كبير . وما عليها من تملّكات وتاريخها ، وأسماء المالكين إذا كانوا مشهورين معروفين . وما عليها من إجازات أو سَمَاعات وتواريخها ، ومَن هو صاحب الإجازة أو السَّمَاع .

ويُثبت المفهرس إذا كانت النسخة « خزائنية » أي كُتبت لملك أو سلطان أو خزانة (مكتبة) معروفة . وفي العادة تكون مجوَّدة الخط ، وصفحاتها مُجَدْوَلَة بإطار متقن ، وذات زخارف وتذهيب في جلدها وأوراقها ، وكذلك بيان ما في أصلها أو أوائل فصولها وأبوابها من تذهيب أو زخرفة . وهي تحتوي على رسوم وصور وأشكال مثل كتب الحِيَل (الميكانيكا) والهندسة والفلك .

ولا أرى أن يهتمّ المفهرس ببيان الكتاب فيما إذا سبق طبعه ، وذكر طباعته وتاريخها ومكانها وناشرها أو محققها ، ومقارنة المخطوطة بالمطبوعة ، وبيان الزيادات فيها . فمثل هذا الاستقصاء يُخرج المفهرس عن عمله . ولهذه المسألة مصادرها الأخرى التي تُعنى بالموضوع .

١١ ـ هناك لون خاص من المخطوطات ، هي « المجاميع » ، فالمجموع أو المجموعة هي التي تضمّ بين دفتي الغِلاف أكثر من مؤلَّف . ويكون أكثرها ـ في الغالب ـ رسائل ، أيْ مؤلفات صغيرة ، ذات أوراق محدودة . وينبغي أن نفهرس كلّ مصنَّف على حِدَة . ولو كان المصنَّف من ورقة أو ورقتين ، أو أكثر . ويحرَّر له بطاقة كما يحرَّر للمخطوطة الكبيرة بطاقة. على أن يُذكر في البطاقة عند وصف النسخة رَقْم المجموعة ، ثم يحدَّد موضع المخطوطة من بين كتب أو رسائل المجموعة ، وموضع صفحاتها بذكر رَقْم الورقة التي تبدأ بها وجهًا وظهرًا ، وكذلك عند خاتمتها .

ومن مشكلات فهرسة المخطوطات أن تكون النسخة ناقصة الأول والآخر ، فلا يتبين اسم المخطوطة ، ولا مؤلِّفُها ، وعلى المفهرس في هذه الحالة أن يبذل قصارى جهده لاكتشاف عنوان المخطوطة ومعرفة مؤلِّفها .

وقراءة المقدمة تدلّ أحيانًا على ٱسم الكتاب أو المؤلِّف ، أو الاثنين معًا ، وقد نجد إشارات في داخل النصّ إلى اسم المؤلف ، ويمكن الرجوع إلى كتب المصادر لمعرفة ما أُلِّف في موضوع الكتاب ، لعلّ الظنّ والتخمينَ ، ثم المقابلةَ والمقارنةَ ، يقود إلى تأصيل الكتاب اسمًا ومؤلفًا ، وقد نجد داخل النص نقولاً عن كتب أخرى ، يمكن منها تحديد زمن المؤلِّف ، ومن ثَمَّ يسهل معرفةُ ما أُلِّف في ذلك العصر في هذا الموضوع . أو قد نجد في مصادر أخرى نقولاً عن مخطوطتنا ، بها نعرف اسمها وعنوانها ، وهنا تبرز أهمية سعة ثقافة المفهرس وطول تجربته التي كنا أشرنا إليها في الفصل السابق ، الأمر الذي يؤدي به إلى كشف غموض هذه المخطوطة ، أو تحديد شيء ما يُعين باحثًا على معرفتها ، كأن تَذكر في بطاقتك عنوانات أبوابها وفصولها ، وأن تطيل في اقتطاف أول الموجود منها وآخرها .

* * *

الفصل السادس

(١)

قواعد تحقيق النصوص

(١)

مدخل :

ابتدأ طبع كتب التراث في منطقتنا في وقت مبكِّر نسبيًا ، وكان ذلك على مراحل . منها ما طُبع في إستانبول ، في مطبعة الجوائب . ومنها ما طبع بعدها في بعض مدن لبنان وسوريا .

ولعلّ من أشهر هذه المراحل : مطبعة بولاق التي أنشئت في عهد محمد علي باشا (الكبير) في القاهرة ، سنة ١٨٢١م ، أي بعد نشأة الطباعة في أوروبا على يد جوتنبرج الألماني ، بنحو أربعة قرون (في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي) .

ولا شك في أن هذه المرحلة مرحلةٌ فاصلة ، أحدثت فيها هذه المطبعة نهضة علمية ، ومعرفية ظاهرة ، ليس في مصر فحسب ، بل في البلاد المجاورة أيضًا .

ونشأت بجوار مطبعة بولاق بعد نشأتها بنحو نصف قرن مطابع أهلية (وطنية) خاصة ، عُنِيَتْ أيضًا بنشر كتب التراث بلغ عددها ما يزيد على عشر مطابع ، طَبعت هي الأخرى كتبًا تراثية تُعد من الأمهات .

وهكذا بدأت الحياة الثقافية والفكرية تتغير تغيرًا جذريًا ، إذا عَرفنا أن ما طُبع في مطبعة بولاق ، في سبعين عامًا ، ما يزيد على نصف المليون جزءًا . وهي مطبوعات تتميز بتنوّع موضوعاتها ، من كتب في الفنون الحربية ، إلىٰ كتب مدرسية ، وكتب في الطب والهندسة والرياضة ؛ مترجمة ، وكتب في التراث ، في مختلف العلوم كالتفسير والحديث والفقه واللغة والأدب بعضها يتَّسم بطابع الموسوعية ، يتألف من أجزاء عديدة ، وأخرى ذوات جزء أو جزءين .

ولا شك في أن لمطبعة بولاق الفضل في إصدار كتب تراثية قيمة ، في الوقت الذي كان نشرها ، قبل ذلك ، عزيزًا جدًّا أو نادرًا ، وتعرّفنا منذ تلك الآونة على كثير من هذه الكتب التي كنَّا في جهلٍ عنها .

ويؤخذ عليها أنها كانت لا تذكر النُّسَخ المخطوطة التي اُعتُمدت عند تحقيق الكتاب . والغالب أنهم كانوا يكتفون بنسخة مخطوطة واحدة . وإذا وُجدت اُثنان ، يُنَصُّ على مقابلتها ، أو الانتفاع من اختلاف بعض الألفاظ أو العبارات .

ولم تكن كلمة « تحقيق » Editing قد اصطُلِح عليها بعد . وكان يُذكر كلمة « تصحيح » ، والذي يقوم به « مصحِّح » . ويُختار المصححون من المتقدمين في دراستهم بالأزهر . ووصل إلينا منهم مصححون أفذاذ ، علماءُ في اللغة العربية وعلومها ، أو أدباء معروفون في ذلك العصر . منهم محمد قِطَّة العَدَوي (ت ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م) ، ونصر الهوريني (ت ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م) .

والحقُّ أن النصوص المنشورة لم تكن تخضع لمنهجية أو قواعد ، كما انتهينا إليها فيما بعد . ينقصها الاهتمام ببعض الخطوات ، فلا حرص على استقصاء النُّسَخ ، ولا إضاءة كافية للنصّ ، ولا اهتمامًا بصنع أثبات متنوعة ، تكشف عن كنوز ذلك النص المنشور . وكان التدقيق في تلك المرحلة موجهًا - في الدرجة الأولى - إلى تصحيح النصّ ، وتقديمه صحيحًا خاليًا من إبهام أو تصحيف وتحريف . لا تجد منها إلّا نادرًا . وربما توضع كلمات ، أو عبارات تُزيل الإبهام العارض ، فيها تجاوز لقدسية النص . ولكنها مرحلة مهمة في سبيل تمهيد الطريق ، واستقرار علم قواعد تحقيق النصوص على مراحل متدرِّجة .

يلي ذلك مرحلة المستشرقين الذين عُنُوا بتراثنا تحقيقًا ودرسًا ، بعد أن توفرت لديهم في أوروبا ، ثم أمريكا ، الثروة الثَّرةُ من المخطوطات العربية . وبدأ اشتغالهم

بتراثنا منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وما تبعه من القرن الثامن عشر .

واتبعوا منهجًا علميًّا في تحقيق النصوص ، ونشروا كثيرًا منها علىٰ وَفْق خطوات التحقيق المتتابعة ، من الخطوة الأولى المتمثلة في استيفاء النُّسَخ المخطوطة وترتيبها وَفْق مراتبها من الصحة ، إلى نهاية هذه الخطوات من صنع الأثبات الكاشفة عن مخبآت هذه النصوص . ونأخذ عليهم ما كانوا يقعون فيه من خطأ في فهم النصِّ ، أو عُجْمة ، لبعد روح العربية عنهم .

ووفد إلىٰ مصر من المستشرقين إلى جامعة فؤاد الأول (القاهرة فيما بعد) المستشرق الألماني برجستراسر (ت ١٩٣٣م) وألقىٰ محاضرات على طلبة الآداب في قواعد تحقيق النصوص ومناهجها . ولم يتيسر لهذه المحاضرات طبعها إلا عام ١٩٦٩م .

ومن المراحل التي ينبغي أن تُذكر : مرحلة القسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، الذي نَهَدَ بتحقيق النصوص مترسّمًا خُطَىٰ مناهج المستشرقين بتوجيهٍ من أحمد زكي باشا ، الذي سينال بعد قليل ، النصيب الوافر الذي يستحقه في هذه الساحة .

وعمل في القسم علماء أفذاذ ، أخرجوا من الكتب التراثية النفيسة ، على منهج التحقيق العلمي ، الكثير منها ، بحرف طباعي مُتْقن ، وإخراج بديع . نذكر من مطبوعاته الموسوعية صبح الأعشى لِـ القلقشندي ، ونهاية الأرب ، لِـ شهاب الدين النُّويري ، وكتاب الأغاني ، لِـ أبي الفرج الأصبهاني ، وتفسير القرطبي ، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، لِـ ابن تغري بَرْدي .

ولا نفصل مرحلة دار الكتب المصرية من نشاط أحمد زكي باشا (ت ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م) ، الذي كان على صلة وثيقة بعلماء الاستشراق . وقد أسدى لتراثنا الخطوات الجليلة في سبيل تحقيق التراث على المنهج الحديث .

وأخرج سلسلة من كتب التراث النفيسة محققة على منهاج علمي ، نذكر منها كتاب « أنساب الخيل » لِ ٱبن الكلبي ، وكتاب « الأصنام » للمؤلف نفسه ، وكتاب « التاج » لِ الجاحظ ، ونلاحظ أنها من أوائل الكتب التي كتب في صدرها كلمة « تحقيق » .

وقد اهتمّ في تحقيقه ، بأنْ كان يقدّم للنصوص دراسة قيّمة حول النص ومؤلِّفه . كما اهتمَّ بإلحاق الأثبات التحليلية . وهو الذي نشر علامات الترقيم في كتاب له ألّفه بهذا الخصوص ، وطبعه في مطبعة بولاق سنة ١٩١٣م ، واستخدمها فيما حقق من نصوص .

وكان يذبُّ عن اللغة العربية ، فأُطلق عليه شيخ العروبة ، وعلى داره بيت العروبة . وقُدّرت مكتبته بنحو عشرة آلاف كتاب ، آلت بعد وفاته ، إلى دار الكتب المصرية .

وأسموها المكتبة الزكية ، ورمزوا لها بالحرف (ز) . يقول فيه شيخ المحققين عبد السلام هارون : « ولعلّ أول نافخ في بُوق إحياء التراث العربي على المنهج الحديث ، في مصر ، هو المغفور له أحمد زكي باشا » .

وما إن نصل إلى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين المنصرم ، إلّا نجد منهج التحقيق قد استقرَّ على يد علماء مبرِّزين من أمثال أحمد محمد شاكر ، وأخيه محمود ، وعبد السلام هارون ، والسيد أحمد صقر ، ومصطفى السَّقَّا ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وغيرهم كثير .

(٢)

التأليف في القواعد :

لعلّ من أقدم الكتب المتفرّدة التي أُلِّفت في قواعد تحقيق النصوص كتاب

عبد السلام هارون : « تحقيق النصوص ونشرُها » ، الذي نشره في طبعته الأولى عام ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م . وهو أول كتاب عربي يصدر في هذا الميدان ، دون منازِع .

وفي العام التالي أصدر صلاح الدين المنجد مختصرًا بعنوان : « قواعد تحقيق المخطوطات » ، وقد ذكر فيه صراحة أنه اطلع على مناهج المستشرقين .

وقد انبثق الكتابان عن تجربة كلٍّ منهما في التحقيق بالإضافة إلى تأثر المنجد بمؤلَّفات المستشرقين في هذا الصدد ، على أن عبد السلام هارون ، وإن لم يطلع على كتب المستشرقين في هذه البابة ، بيدَ أنه اطلع بيقينٍ على كتب التراث التي نشرها المستشرقون ، وكانت منتشرة ، وتملأ المكتبات العامة والخاصة ، وإن الاطلاع عليها من واعٍ كهارون يتكشف له طريقتهم ومناهجهم في التحقيق ، الأمر الذي يجعل عبد السلام هارون ليس بعيدًا ، ولا غريبًا عن هذه المناهج .

وإن نسينا فلا ننسىٰ صنيع د. مصطفى جواد ، الذي ألقى سنة ١٩٦٥ علىٰ طلبة الدراسات العليا (اللغة العربية) بجامعة بغداد ، محاضرات في تحقيق النصوص ، وهو عالم مدقق ، يُشار إليه بالبنان . ونُشرت أماليه هذه مرتين ، من طالبين من طلابه ، ممن تلقوا عليه هذه المحاضرات وكان ذلك بعنوان : « أمالي مصطفىٰ جواد في أصول تحقيق النصوص » ، ونُشرتا سنة ١٩٧٤ ، ١٩٧٧م علىٰ التوالي .

وقد تكاثرت المؤلَّفات في الآونة الأخيرة ، التي تعالج قواعد التحقيق ، وأصبحت تُعدُّ بالعشرات وجميعها لم تأتِ بجديد يخصّ خطوات هذه القواعد التي ينبغي أن تُتَّبع عند تناول النصوص بالتحقيق . وربما جديدهم ينصبُّ علىٰ أمثلة جديدة من خلال تجاربهم في هذا العمل .

ولعلّ كثرة هذه المؤلَّفات جاءت على وَفْق الرغبة في إشاعة مثل هذه الكتب بين

المشتغلين بالتراث . ذلك أنه دخل الحَلْبة أفراد ومؤسسات تجارية ، يُخرجون نصوصًا غير محقَّقة ودون تمحيص ولا تدقيق ، باعثهم الأول والأخير الكسب المادي .

(٣)

هل عرَف العرب قواعد التحقيق :

يسري بيننا أن المستشرقين هم الذين وضعوا لنا مناهج التحقيق ، وقدّموا لنا من التراث محققًا ، الكثير .

ولكن الذي يعود إلى كتب التراث ، يجد أن العرب اهتموا بمظاهر كثيرة موصولة بهذه القواعد ، واهتموا بدقة النص وصحته . وقد أشار الجاحظ في كتابه « الحيوان » (١ / ٧٩) إلى صعوبة إصلاح تصحيف أو معالجة كلمة ساقطة أو مطموسة . وأن التأليف في ذاته أسهل وأيسر .

وكذلك يذكر أبو حيان التوحيدي في المقابسة الثانية عشرة (ص ١٠٢ من كتابه المقابسات) ما يفيد علىٰ لسان علماء صعوبة إصلاح النصّ ، وإخراجه على الصورة التي أرادها المؤلِّف .

ولدينا في كتب التراث روايات تدلُّ على أن العرب عرفوا التدقيق في النصوص ، ومقابلتها بين النُّسَخ ، واستعمال الرموز والمصطلحات المناسبة للاختصار ومنع التكرار .

فقد كانوا على حرص شديد أن يخرج الكتاب مدققًا صحيحًا بعيدًا عن التصحيف والتحريف .

وحسبي هنا أن أشير إلى صنيع اليونيني ، حافظ دمشق المشهور ، في القرن السابع للهجرة ، في صحيح البخاري ، وقد صحَّح ودقَّق وقابل بين نسخ أخرى

موثوقة ، وأخرج هذا العمل المضني ، في واحدٍ وسبعين مجلسًا في دمشق ، وبجواره ابن مالك النحوي الأندلسي ، يراجع ويصحِّح ، وأمامه جماعة يسمعون منه وينظرون في نسخ معتمدة من الكتاب .

ولكنّ مثل هذه الأعمال والملاحظات وغيرها ، بقيت متناثرة لا ينظمها عِقْد في شكل قواعد متتابعة ، فضلاً عن أنها غير مُرتَّبة على نمط واضح ، مبتدئة بالخطوة الأولىٰ ، فالثانية ، إلىٰ آخر هذه الخطوات التي تُخرج نصًّا مخدومًا خدمة وافية .

بالإضافة إلى أنَّ بعض الخطوات لم تكن في حسبان العرب القدامىٰ ، أو لم يعيروها الاهتمام الكافي . من مثل علامات الترقيم . والأثبات المتنوعة الكاشفة .

على أية حال ، إن حديثنا في هذا الفصل كان بمثابة حديثٍ ما بين يَدَي القواعد . أما القواعد نفسُها فستكون موضوع المحاضرة اللاحقة .

* * *

الفصل السابع

(٢)

قواعد تحقيق النصوص

(١)

تمهيد :

كنا في الفصل السابق قد حُمنا حول قواعد التحقيق ، بما أسميناه (بين يدي القواعد) ، تحدثنا فيه عن أثر مطبعة بولاق في نشر كتب التراث ، وأنها عرّفتنا بكتبٍ لم تكن لها هذا الشيوع بين المتخصصين والمثقفين . وكان المصحِّحون يكثِّفون جهودهم نحو ضبط النصّ ، في حين أن أمورًا أخرى كانت تُتجاوَز ، ولكنّها مرحلة مهمة في سبيل تمهيد الطريق ، والسير نحو استقرار علم قواعد تحقيق النصوص ، ورسوخه علىٰ مراحل متدرِّجة .

وأشرنا إلى جهود المستشرقين في الاشتغال بتراثنا تحقيقًا ودرسًا . وساروا في التحقيق على وَفْق منهجية علمية واضحة . وأخذنا عليهم وقوعهم في أخطاء تتعلق في فهم النص ، أو عُجمةٍ ، لبُعْد روح العربية عنهم .

وذكرنا محاضرات المستشرق الألماني برجستراسر (ت ١٩٣٣م) في مناهج التحقيق وقواعده ، والتي طُبعت متأخرة عام ١٩٦٩م .

وانتقلنا إلى مرحلة القسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، الذي نَشر التراث على منهج المستشرقين بهَدْيٍ وتوجيه من أحمد زكي باشا (ت ١٩٣٤م) ، الذي كان على صلة وثيقة بعلماء الاستشراق ، وهو نفسُه أسدى لتراثنا خطوات جليلة بإخراجه مجموعة من أُصول كتب التراث . ولعله أول من صدَّر بعض كتبه المحققة بكلمة « تحقيق » ، بدلاً من « تصحيح » .

وكانت النُّقْلَة التالية إلى كتاب عبد السلام هارون « تحقيق النصوص ونشرها » ، الذي أصدره عام ١٩٥٤ م ، وعددناه أولَ كتاب عربي يصدر في هذا الميدان ، دون منازع . وذكرنا مختصر صلاح الدين المنجِّد الذي نشره في العام التالي . وفيه تَأَثر ـ

صراحةً ـ بمناهج المستشرقين . والثالث صنيع مصطفى جواد الذي أملىٰ علىٰ طلابه بجامعة بغداد قواعد التحقيق ، بعد نحو عشر سنوات من كتابَيْ هارون والمنجِّد .

وناقشنا مسألة هل عَرَف العربُ قواعدَ التحقيق ؟ وانتهينا إلىٰ أنهم عَرَفوا كثيرًا من مظاهر التدقيق والمقابلة ، بيدَ أنها بقيت متناثرة لا ينظمها عِقْد في شكل قواعد متتابعة متكاملة .

(٢)

خطوات التحقيق :

نجملها مكثّفةً على النحو التالي :

١ ـ **أول خطوة ينبغي على مَن يريد تحقيق نصٍّ ما ، أن يحصر النُّسَخ والمكتبات التي تحتفظ بها** . وذلك بالرجوع إلى كتاب كارل بروكلمان : « تاريخ الأدب العربي » ، وكتاب فؤاد سزكين : « تاريخ التراث العربي » ، والاتصال ببعض قواعد البيانات المنبثقة عن مراكز مشهورة . ثم عليه بعد دراستها ترتيبُها علىٰ وَفْق الأولوية والنَّفاسة . وإن كانت النُّسَخُ وفيرةً ، قسَّمها إلىٰ مجموعات ليختار من كل مجموعة متجانسة واحدة ، إلىٰ أن ينتهي إلىٰ النسخة الأمّ ، والمساعِدَات الأخريات .

ولا ينبغي أن نتساهل في بذل الجهود نحو استقصاء النُّسَخ وحصرها . ولدينا من الأمثلة أن علماء في التحقيق في أوائل خمسينيات القرن الماضي ، قد اعتمدوا علىٰ نسخة واحدة نفيسة ، واكتشفوا في أخريات عملهم ، أو بعد صدوره ، بظهور نسخة أخرى ؛ أنَّ النسخة المعتمدة بها خَرْم لم يلحظ في ثنايا العمل .

٢ ـ **الخطوة التالية** : وهي تسير جنبًا إلىٰ جنب الخطوة الأولىٰ ، وكأنها الوجه الآخر من عُملة واحدة . **وهي التنقير في المصادر والمظانّ عن طبعات هذا**

الكتاب ، وهل هي محققةٌ أم لا ؟ ولا يمنع أن تُحققه من جديد إذا كان العمل السابق على غير منهجية علمية ، وأنَّ النصَّ غيرُ مخدوم ألْبَتَّةَ ، أو أنه اعتمد علىٰ نسخة واحدة فيها نقص ، أو خَرْم ، وأنك ستضيف في عملك شيئًا جديدًا ، ذا فاعلية . أما إذا وجدت أنك سوف لا تضيف جديدًا فٱضرب عن عمله ؛ لأننا لا نريد تكرارًا في جهود غير نافعة ، وتَوجّه إلىٰ عمل آخر ، فساحة التراث واسعة وزاخرة بالمخطوطات التي لم يمسسها بشر .

٣ ـ **قبل التمادي في النص ، لا بد من أن نوثِّق عنوان الكتاب** . مع التنبّه أن بعض الكتب لها أكثرُ من عُنوان . والرجوع إلى المصادر لتوثيق نسبة المؤلف إلى الكتاب . ويعينك على توثيق العنوان والمؤلِّف ؛ النصُّ في داخله . فكثيرًا ما يذكر المؤلف : وسميته بكذا ، أو أسميته ، أو وسمته ، أو ترجمته .

وربما نجد المؤلِّفَ في أوائل المخطوطة أو في آخرها . فلا يغرَّنَّك ما يُكتب علىٰ صفحة العنوان ، ففي بعض الأحيان يكون العنوانُ ، أو المؤلِّف مقحمًا ومُضلِّلاً .

ولدينا من الأمثلة من المنشور في تراثنا ما نَسب النصَّ إلى غير مؤلِّفه ، واكتشف علماءُ مدققون ـ بعد سنين طِوال ـ صحة النسبة ، أعانهم في ذلك سَعَة ٱطّلاعهم على التراث ، والرجوع إلىٰ المصادر ، والعثور علىٰ عبارات في داخل النص ، كانت حاسمة في التوثيق .

٤ ـ أ : **هنا تَبدأ مرحلة نَسْخ المخطوطة وإثبات فروق النُّسَخ المهمة في الحاشية** . ولا تُثقل الحواشي بفروق لا تؤدي إلى احتمالات فهم جديد مخالِف للجملة التي أنت بصددها . فكثير من هذه الفروق غير المهمّة من صنع النُّسَّاخ . وليست للمؤلِّف .

ب ـ مع هذه الخطوة نفسِها ـ وفي تداخل ـ تَضبط النصّ . وليس ضروريًّا أن تضبط الكلمة بكل حروفها . وسِر على مبدأ « أشكل ما يُشْكل » ، إلّا الشعر ، فأرىٰ ضبطَه كاملاً ؛ لأنه مهمٌّ للأوزان والبحور ، وحتىٰ يُقرأ صحيحًا ، فيُعين علىٰ فهمه .

ويدخل في هذه البابة الاهتمام بوضع علامات الترقيم ، فهي تؤدي إلى جلاء المعاني وإيضاحها . ومن علامات الترقيم تقسيم النصّ إلى فِقْرات . فهو يساعد على كشف المسائل المطروحة في النصّ . فكلُّ نُقْلة من مسألة لأخرىٰ تبدأ بفقرة جديدة .

٥ ـ **التعليق على النصّ في الحاشية** . ومنهم مَن يُدمج فروق النُّسَخ بتعليقاته ، ومنهم من يفصل بينهما بخط أفقيّ قصير . ولعلّ طبيعة النصّ ووجود كثير من الفروق وكثير من التعليقات تَفرض على المحقق الفصل بينهما . أما إذا كانت الفروق والتعليقات محدودة فلا بأس من دمجهما .

وتعلِّق على الأعلام والبلدان وغيرهما مما يحتاج إلى تبيان ، ولا تعلِّق على أعلام مشهورين كعمر بن الخطَّاب ، وعثمان بن عَفَّان ؛ لأن مبدأ عدم إثقال الحواشي ينبغي أن يكون نُصْب عَينيْ المحقِّق .

وأرىٰ أن تَشرح بإيجاز شديد لفظةً غامضة ، أو عبارةً مشكِلة ؛ ذلك لأننا لا نقدّم نصوصنا محققةً للمتخصصين حسب ، وإنما للمثقفين والشباب حتىٰ يسهل فهمها ، فيقبلُون علىٰ قراءتها . أما منهج المستشرقين فلا يهتمّ بإضاءة النصّ ، ولا التعليق عليه ، بل بفروق النُّسَخ حسب .

٦ ـ **الاهتمام بالتقديم للنصّ بعد إتمام خطوات التحقيق وتنفيذها** . ويتضمن التقديمُ في العادة حديثًا مكثّفًا عن المؤلف وشيوخه وتلاميذه وكتبه . وإبراز ما له علاقة بالنصّ المحقَّق . والحديث عن النصّ ومصادره ، وقيمة النصّ في موضوعه ،

ومدى تأثّره بالكتب السابقة ، وأثره في الكتب اللاحقة . ثم توصيف النُّسَخ ، وترتيبها ، ورمز كلّ نسخة ، ومنهجك في التحقيق .

هذا في حالة أن يكون عملك تحقيقًا . أما إذا كان العمل تحقيقًا ودراسة ، فينبغي أن يكون التقديمُ دراسةً عميقة ، وواسعة الأرجاء ، وعدم الاكتفاء بالتقديم المكثَّف على النحو الذي ذكرناه آنفًا .

٧ ـ **آخر التطواف صُنع فهارس للنصّ والتقديم ، أو الدراسة جميعًا** ، وهناك فهارس تقليدية مشتركة بين كلّ النصوص . وأخرى تنبثق من خصوصية النصِّ وطبيعته . فإن كان النصُّ المُحَقَّقُ في اللغة مثلاً ، لا بدَّ أن يُصنع له فهارسُ لغوية ، وإن كان كتابًا في العلوم البحتة مثلاً ، لا بدَّ أن يُصنع له فهارسُ تكشف عن المصطلحات العلمية الواردة فيه .

(٣)

خاتمة :

هذه هي الخطوات عرضتُها بإيجاز شديد . وأنا واثق لو اتّبعتَها مقبلاً علىٰ النصِّ ، جادًّا مجتهدًا ، تكون قد أدَّيت واجبك نحو التراث علىٰ أفضل ما يكون وحللتَ مكانةً علمية عُليا في مجال التحقيق ودراسة هذا التراث المجيد .

* * *

الفَصْلُ الثَّامِن

التصحيف والتحريف
في اللغة العربية

كنتُ قد سمعتُ من معلِّم التاريخ ، في مرحلة الدراسة الثانوية ، وهو يشرح حقبة من تاريخ العهد الأموي ، أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله على المدينة : « أحصِ المخنَّثين قِبَلَك » ، فوَقَعت من قلم الكاتب نقطة على الحاء فجعَلَتْها خاءً . فلما ورد الكتاب على والي المدينة ، قرأ كاتِبُه « إخصِ المخنَّثين » ، فقال له الوالي : لعلَّه « أحصِ المخنثين » ، فقال : أيها الأمير إنْ على الحاءِ نقطةً مثل نجم سُهَيْل ، فأمر الوالي بإحضار المخنَّثين للخِصاء ، فتهارب أكثرُهم ، ووقع أقلُّهم .

وبرغم أنني عجبتُ آنذاك ، كيف أن نقطة مِداد أدخلت رجالاً في عِداد النساء ، بيدَ أن الزمنَ طوىٰ هذه الحكاية من الذاكرة ، إلى أن أُتيح لي العمل منذ ما يزيد على ثلث قرن ، بين المخطوطات العربية ، فعادت الحكاية من جديد ، كأنني سمعتها بالأمس ، وأخذتُ أعيش مشكلة التصحيف والتحريف الخاصة باللغة العربية ، كل يوم .

ويعود سرُّ ذلك إلى بعض خصائص اللغة العربية وحروفها . فهي لغةٌ منقوطة الحروف ، بجانب أنها مُعْرَبة ، تتغير أواخر كلماتها على وَفْق مواقعها من الجملة نحوًا وإعرابًا . وترجع أهمية النَّقْط إلى أن كثيرًا من حروف العربية متشابهة في رَسْمها وصورتها ، ولا سبيل إلى إزالة غموضِها وعُجْمتها إلَّا بالنَّقْط . وفقدان هذه الحروف نقطها ، على نحو ما درجت كثيرٌ من المخطوطات قديمًا ، يحدث اللَّبْس في قراءتها ، فيقع فيها حينئذٍ التصحيفُ والتحريف ، ولا شك في أن لنا في المخطوطات دورًا كبيرًا في شيوع هذه الأخطاء في النصوص العربية .

والتصحيف في اللغة معناه أن يُقرأ الشيء بخلاف ما أراده كاتبه ، وعلىٰ غير ما ٱصطلح عليه في تسميته . وهو لفظ مولَّد . وأصله أن قومًا كانوا قد أخذوا العلمَ عن الصُّحف ، من غير أن يلقَوْا فيه العلماء ، مشافهة ، فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال عنده : قد صحَّفوا ، أي ردَّدوه عن الصُّحُف .

ومن العلماء القُدامىٰ من ميَّز بين التصحيف والتحريف بوضوح ، كابن حَجَر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، في كتابه « شرح نخبة الفِكَر في مصطلح أهل الأثر » ، الذي جعل التصحيف خاصًّا بالالتباس في نَقْط الحروف المتشابهة في رَسْمها وصورتها كالباء والتاء والثاء . أما التحريف فهو خاص بتغيير رسمِ الحروف وصورتِها كالدَّال والرَّاء .

ولمَّا كان التصحيف والتحريف من أكبر آفات الكتابة في المخطوطات العربية ، قبل نشأة الطباعة وانتشارها ، وأصبحنا لا نجد مخطوطة تَسْلم من هذه الآفة ، ظهرت مؤلَّفاتٌ خاصة في هذا الموضوع ، بقصد علاجها وحصرها وبيان أنواعها وأمثلتها . ولعلَّ من أقدم هذه الكتب وأكثرِها شمولاً وعُمقًا كتاب « التنبيه علىٰ حدوث التصحيف » لِ حمزة بن الحسن الأصفهاني (ت ٣٦٠هـ) .

ومنها كتاب « التنبيهات على أغاليط الرواة » لِ علي بن حمزة البصري (ت ٣٧٥ هـ) . ثم كتابان لِ أبي أحمد العسكري (ت ٣٨٢هـ) . وما صنعه الحافظ علي بن عمر الدارقطني (ت ٣٨٥هـ) . وكتاب لِ أبي الفتح عثمان بن عيسى البليطي (ت ٥٩٩هـ) . وكتاب سابع لِ صلاح الدين الصَّفَدي (ت ٧٦٤هـ) . وللسيوطي (ت ٩١١هـ) فصلٌ عقده في كتابه المعروف « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » ، وله أيضًا كتابٌ بعنوان : « التطريف في التصحيف » .

ومن المحْدثين عبد السلام محمد هارون الذي عقد فصلاً في كتابه « تحقيق النصوص ونشرها » . وبحث قيِّم في « التصحيف والتحريف » لِ د. محمود محمد الطناحي ، ألحقه بكتابه : « مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي » وغيرهما كثير .

وظهر كذلك نوعٌ آخر من التآليف التي تعالج موضوعات بعينها من التصحيف والتحريف ، كأن يتخصص بعضُها في ضبط أسماء الرجال ، أو القبائل ، أو

الشعراء ، وسمِّيت هذه المؤلفات بكتب المؤتلف والمختلف . وممَّن ألَّف في أسماء القبائل ، من هذه البابة ، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) . ومن الذين ألَّفوا في ضبط أسماء الشعراء : الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠هـ) .

ويرتبط الارتباك في صحة قراءة الكتابة العربية بتشابه صور حروف كثيرة ، مع غياب النَّقْط ، وعدم ضبط الحرف بالشكل . فمن حروف العربية خمسة لها صورة واحدة ، وهي : الباء والتاء والثاء والنون والياء ، لا يُفرِّق بينها إلّا عدد النُّقَط ومواضعها، وكذلك يقع التشابه في الجيم والحاء والخاء . والدال والذال . والرَّاء والزاي . والسين والشين . والصاد والضاد . والطاء والظاء . والعين والغين . والفاء والقاف . أما الحروف المتقاربة رسمًا ، ولا دخل للنَّقْط فيها ، فهي الدال واللام ، وغيرها .

وبإزاء هذا التشابه ، شاعت الأخطاء ، وعمَّت عند العلماء البلوىٰ ، فشدّدوا على ضرورة التَّلقِّي والمشافهة ، وعدم التعويل على الصُّحُف . وقالوا لا تأخذوا القرآن الكريم ، ولا العلمَ بفروعه ، من صُحُفيّ . وكانوا يهجون الصُّحفيِّين ، ويمدحون من لا يعتمد على الصُّحُف في علمه .

علىٰ أن التصحيف والتحريف يقعان ـ علىٰ قلَّة ـ بسبب خطأ عند السمع لتقارب أصوات بعض الحروف ، لا الخطأ عند القراءة . كأن يُملي أحدُهم كلمة « ثابت » فيسمعها الكاتبُ ويكتبها « نابت » ، أو « احتجم » فيسمعها الكاتب ويكتبها « احتجب » .

ومن المشهور في المصادر أن التصحيف على الألسنة شاع منذ عهد عثمان ابن عفَّان ، الذي استكتب المصاحف الخمسة ، وكانت كتابة القرآن الكريم ، في أول عهدها ، بحروف خالية من أيّ نَقْط أو شكل . فلما زاد اختلاط العرب بغيرهم من المسلمين ، وفشا اللَّحْن بينهم ، خِيف علىٰ القرآن من قراءة غير العلماء

له . فقام أبو الأسود الدُّؤَلي (ت ٦٩ هـ) في زمن معاوية بن أبي سفيان ، بضبط أواخر الكَلِم ، في المصاحف ، بالنَّقْط ، فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف ، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله ، وعلامة الضمَّة نقطة بين يديه . ونهج الناسُ هذا النهج ، واستعملوا مدادًا أحمر في النَّقْط مخالفين بذلك لون الحروف .

بيدَ أنّ نَقْط أبي الأسود حال دون الخطأ في الإعراب ، ولم يمنع تفشِّي التصحيف لتشابه كثير من حروف العربية في رسمها ، وبقي هذا الحال علىٰ ما هو عليه حينًا ، إلى أن تنبّه له الحجَّاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ) أمير العراق في خلافة عبد الملك بن مروان ، ففرغ إلى كُتَّابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات . والمشهور أن نصر بن عاصم الليثي (ت ٨٩ هـ) وكان جميلَ الخط ، هو الذي وضع النَّقْط أفرادًا وأزواجًا . وخالف بين أماكنها ، ليزيل اللَّبْس بين الحروف المتشابهة .

أما نقط أبي الأسود لضبط حركات الإعراب ، ففي أصحّ الأقوال إن الخليل ابن أحمد الفراهيدي العبقري الفذّ (ت ١٧٠هـ) هو الذي وضع علامات الشكل بدلًا من نَقْط أبي الأسود ، واختصر من الألف الفتحة بشكلها القائم ، ومن الواو الضَّمَّة ، ومن الياء الكسرة . أما العلامات الأخرىٰ ، كالمدَّة والوصلة والشَّدَّة ، فقد وُضعت بعد ذلك في العصر العباسي [1] .

والواقع أن أمثلةَ التصحيف كثيرة ، يطول ذكرها وحصرها . نجد منها في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وفي الشعر والنثر . ونجتزئ هنا ببعض الأمثلة التي توضِّح ما نرمي إلىٰ قوله وتبيانه .

---

(١) انظر : المعجم العربي بين الماضي والحاضر ، د. عدنان الخطيب ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢١ - ٢٢ .

ففي القرآن الكريم حدث اختلاف في قراءة ألفاظ منه ، ٱحتمل قراءتها على وجهين ، فصارت قراءتين منها الآية الكريمة : ﴿ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ... ﴾ [الحجرات : ٦] وفي قراءة أخرى : ﴿ فَتَثَبَّتُواْ ﴾ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ... ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وفي قراءة ابن عبَّاس : ﴿ وَصَّىٰ رَبُّكَ ﴾ ، وقد قال محتجًّا لقراءته : « لو كان ﴿ قَضَىٰ ﴾ لما عبدوا سواه » .

ومن غرائب الأمثلة وعجائبها : ما قيل إنَّ أحدَهم قرأ : ﴿ وفُرُشٍ مَرْقُوعَةٍ ﴾ والصواب : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرۡفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٤] .

ولم يَسْلم أئمة رواة الحديث النبوي من التصحيف فيه ، فكثير منهم يروون أن النبي ﷺ قال : « تختموا بالعقيق » ، والصحيح أنه قال : « تخيَّموا بالعقيق » . والعقيق هنا ٱسم وادٍ خارج المدينة . وليس الحجر الكريم المعروف .

وروىٰ أحدهم أن الرسول الكريم ﷺ كان يستحبّ العسل في يوم الجمعة ، والصواب أنه كان يستحبّ الغُسْل فيه .

ووقع الرواة في مثل هذه الأخطاء فيما روَوْا عن بعض الصحابة وسيرتهم وأخبارهم من روايات متعددة ، ومواقف طريفة ، مثل قراءة كلمة « الزَّنْج » « الريح » ، وكلمة « حرب » مثل « جرب » وغير ذلك كثير .

أما علماء اللغة والأدب ، فإنَّ بعض أجلَّائهم ٱفتضح أمره من أثر تصحيفات وسقطات أضحكت السَّامعين ، وفقد ثقة الناس في علمه وروايته ، وإن ظلَّ بعضُهم علىٰ ما هو معروف عنهم من ثقة وعلم ، برغم شناعة تصحيفاتهم . ولعلَّ من أشهر الأمثلة في هذه البابة ما ذكره الجاحِظ (ت ٢٥٥ هـ) في كتابه « البيان والتبيين » فقد قال فيه : جاءنا عن النبيّ ، والصواب جاءنا عن البَتِّي ، وهو عثمان

ابن مسلم البصري البَتِّي ، الذي كان من الفصحاء ، فانظر كيف وقع الجاحِظ في هذا التصحيف .

وقد ذكرنا قبل قليل ، أن الآمدي وضع كتابًا لضبط أسماء الشعراء لكثرة ما وقع فيها من تصحيف وتحريف ، وقد كثرت الأخطاء في أسماء الشعراء ، وٱحتاج ضبطها إلى عالم متمكِّن ذي خبرة . قال أبو أحمد العسكري في كتاب « التصحيف » : « وهذا باب صعب ، لا يكاد يضبطه إلّا كثير الرواية ، غزير الدراية » .

ويكفي أن نذكر اسم شاعر واحد ، لنجد مقدار ما وَقع فيه من تصحيف ، وهو حريث بن محفض ، فقد قال بعضُ العلماء : مخفض ، وقال بعضهم : مخفص ، وقال آخرون : محيصن . ولم يَحسم الأمرَ ويفصل فيه إلّا أبو بكر بن دريد (ت ٣٢١ هـ) إذ ضبطه بالعبارة فقال : إنه شاعر مشهور ، وهو حريث بن محَفّض (بالحاء غير المعجمة مفتوحة ، والفاء مشدَّدة ، والضاد منقولة) وهو الذي تمثل الحجَّاج بشعره على المنبر(١) .

ومن خلال تجربتي ، فقد وقعتْ بين يدي في شهر صفر من عام (١٣٩٦هـ ـ فبراير ١٩٧٦م) مخطوطة في مدينة الشِّحْر على ساحل حضرموت ، ناقصة من أولها ، وقد كُتب على الورقة الأولى منها بخط مغاير كتاب « تحية الفِكْر » ، فعجبتُ من هذا العنوان المحدث ، والمخطوط قديمة . وما إن قلَّبتُ فيها حتى تبيَّن أنه كتاب « نخبة الفِكَر في مصطلح أهل الأثر » لابن حجر العسقلاني . وهكذا وقع التصحيف في عنوان كتاب ذائع الصِّيت .

ومن باب تصحيف النَّقْط ما لاحظه بدقة العلاّمة الشيخ حمد الجاسر على

(١) انظر : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي ، تحقيق جاد المولى والبجاوي ، وأبي الفضل ، ط. عيسى الحلبي ، دون تاريخ ، ٢ / ٣٩٣ .

مُحَقِّق جزء من أجزاء كتاب « تاج العروس من جواهر القاموس » ، لِ مرتضى الزَّبيدي ، في طبعته الكويتية . فقد جاء النص محقَّقًا على الصورة التالية : « العَرْفَج شجر سهلي سريع الأنقياد » فلم يجد الشيخ معنى لنبات العَرْفج أن يكون سريع الأنقياد ، وصوَّب العبارة إلى « سريع الآتقاد » من الوقود ، وزاد من حجة تصويبه أن نبات العرفج كذلك ، فهو من أسرع الشجر أتقادًا ، حتى لو كان أخضر أو ممطورًا . وهذا شيء معروف في نجد ، ويضربون المثل في سرعة أتِّقاده ، فيقولون : « مثل شعلة العرفج »(١) .

وهناك نوع آخر من التصحيف غير تصحيف النَّقْط ، وهو تصحيف الحركة علىٰ نحو ما مرَّ بنا قبل قليل من تصحيف أسم كتاب « نخبة الفِكَر في مصطلح أهل الأثر » بجعل الكلمة الثانية « الفِكْر » بكسر الفاء ، وسكون الكاف .

ومن أمثلته أيضًا : أن يَضبط أحدُهم أسمَ الطبيبَ المشهور ابن النَّفيس ، بقوله : « هو عليّ بن أبي الحزم القُرشيّ ، منسوبًا إلى قبيلة قُريش المعروفة ، والصواب : القَرْشي ، بفتح القاف ، وسكون الرَّاء ، منسوبًا إلىٰ قَرْش ، وهي بلدة فيما وراء النهر (٢) .

ومن الطرق التي كان يُستدل بها على تبين صحة ما يَقرأونه ، الأخذ بسياق الكلام ، والمقصود منه ، مثل بيت جرير :

يا أيها الرجل المُرْخِي عمامته هذا زمانُك إني قد مضىٰ زمني

فقد حاروا في كلمة المُرخِي ، وهي دون نَقْط ، فقرؤوها كذلك ؛ لأن ما

---

(١) ارجع إلىٰ : نظرات في كتاب « تاج العروس من جواهر القاموس » ، للشيخ حمد الجاسر ، الط . الأولىٰ ، الرياض ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م . الجزء الأول ، ص ١٣٦ .

(٢) انظر الأعلام ، للزِّرِكْلي ، الط . الثالثة ، ٥ / ٧٨ .

بعدها « عمامته » . وقُرئت « المزجي » حين روي ما بعدها « مطيته »[(١)] .

وقد لجأ بعضُهم إلى مخالفة المعروف في اللغة ، ليُجنِّبوا غيرهم الوقوع في التصحيف والخطأ ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بشيء منهم كصحة البدن ، فكان حُنين بن إسحاق ، المترجم والطبيب المشهور (ت ٢٦٠ هـ) يحتاط فيما يذكره من أسماء الأدوية ، فيترك الحرف ذا اللَّبْس إلى آخر يضعه مكانه . من ذلك أنه كان يكتب « الصعتر » بالصاد ، لا بالسين ، ويقول : أخاف إن جعلته بالسين أن يُقرأ « الشعير » فيصير به الدواء داءً .

على أن خطورة التصحيف انتهت إلى حدٍّ كبير ، بعد انتشار الطباعة ، ونضوج الكتابة العربية ، ووضوح الحروف الهجائية بالنَّقط الملتزم ، والشكل الكامل . ولم يعد الإشكال حادًّا إلَّا فيما يتعلق بقراءة المخطوطات العربية ، وإعادة كتابتها ، تمهيدًا لطبعها ونشرها محقَّقة تحقيقًا منهجيًّا علميًّا . وهي المخطوطات التي أودعها العرب نتاجهم الفكري ، في قرونٍ سالفة .

إن موضوعَ التصحيف والتحريف ، وثيقُ الصلة بتراث العرب الفكري ، ولا يُعنى به ـ في العادة ـ إلّا الخاصة من المشتغلين بتحقيق النصوص ، وقد توخّيت أن أعرضه هذا العرض المبسَّط ، ليكون سهل الاستيعاب ، صالحًا مع المتخصصين ، لطلّاب الثقافة العربية العامَّة .

* * *

---

(١) انظر : ديوان جرير ، تحقيق د. نعمان طه . دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م ص ٥٧٠ ، ٧٣١ ، والتنبيه على حدوث التصحيف ، لحمزة بن الحسن الأصفهاني ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، نشر مكتبة النهضة ، بغداد ، الط . الأولى ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ص ٧٨ .

الفصل التاسع

(١)

المصادر العامة لتحقيق النصوص

(١)

أدوات التحقيق :

منذ أن اتضحت صورة « علم المصادر » في بلادنا ، في مطالع سبعينيات القرن الماضي ، أخذت بواكير المؤلَّفات التي تُعنى بهذا العلم تتوالىٰ في الظهور ، مندرّجة في مختلف الأقطار العربية .

وجُلُّها ـ إن لم يكن كلُّها ـ تَعرِض لهذه المصادر موزَّعة على تصنيف « ديوي » ، أو علىٰ موضوعاتها التي بُنيت عليها .

غير أننا سنحاول أن نَعرض لهذه المصادر . كأدوات تحقيق النصوص ، بالأهداف ، أو الأغراض التي وضعت من أجلها فهي عصبُ كُلّ باحث في التراث العربي ، وأدواتُه المُسعفة التي يُلجأ إليها في كلِّ حين .

إن كثيرًا من الكتب التي ٱعتنت بعلم المصادر كان همّها الأوَّل أن تستقصيَ ذكرَها جميعًا ، فجاءت علىٰ هيئة قوائم أو أدلّة ، ليس فيها ما يَعرض لهذا المؤلَّف ويحلِّله ، ويكشف عن طريقة تأليفه ، والطرق التي ينبغي ٱتِّباعها للانتفاع منه ، ومتىٰ يكون ذلك ، أو لا يكون .

وسنحاول في هذ الفصل ، والتالي له ، أن نربط بين هذه المصادر ، وبين الخطوات المنهجية المتتابعة التي ينبغي الالتزام بها عند تحقيق نصٍّ من النصوص ، ومن ثم التوفُّر على دراسته في حدود ما يَسمح به وقت المحاضرتين .

وسيرى القارئ الكريم أنني أكسر هذه المصادر على حقولٍ سبعة ، كلُّ حقلٍ منها يتعلق ـ في الغالب ـ بخطوة من الخُطىٰ المنهجية لقواعد التحقيق . وهو ترتيب ـ فيما أعلم ـ جديد . لم أُسْبَق إليه .

وقبل أن نَلِج في الحديث عن هذه الأدوات ، التي لا بد أن تتوافر للمحقق ، ويتعرَّف إليها ، ويجيدَ استعمالها ، ويتمرّسَ على طُرق الإفادة منها ، ينبغي أن نبيِّن أن أدوات التحقيق نوعان : أدوات عامَّة مشتركة في جميع أصناف العلوم التي تحقق نصوصها ، ونوع آخر خاص بعلم من العلوم ، أو ببعضها مجتمعة ، بينها رابطٌ ما .

وأخيرًا ، أودّ أن أنبه إلى حُزمة من الملاحظات :

ـ كثير من كتب التراث عامّة ، والمصادر التي نذكرها هنا خاصّة ، قد طُبعت غيرَ مرَّة . والأمثل دائمًا أن نرجع إلىٰ أفضلها ، ولا نتعامل إلّا معها ، لأنها تكون ـ في الغالب ـ أكملَ وأصحَّ ، وذات أثبات (كشَّافات) أوفر .

ـ حين نحتاج إلىٰ التعامل مع مصدر من المصادر ، لأول مرة ، قبل أن نكشف عن طَلِبَتِنا فيه ، لا بد أن نقلّبه على عجل ، ونقرأ مُقدّمته ، وننظر في أثباته ، ما الذي صنع منها ، وما أُهمل . فإن هذا الذي فَعَلْنا يُعيننا علىٰ معرفة منهج الكتاب ، ويسهِّل لنا الوصول إلىٰ ما نبتغيه منه بأيسر الطرق وأسرعها ، كلما احتجنا الرجوع إليه .

ـ المصادر العامة التي تندرج تحت كلِّ حقل كثيرة جدًّا ، وسوف أكتفي بذكر الرئيسي منها . وأنا مطمئن إلى أن الباحثين حين يستخدموها بتمَكُّن واقتدار ، ستُسلمهم ، بطبيعة الحال ، إلى مصادر أخرىٰ .

(٢)

الحقل الأول : جمعُ النُّسَخ وترتيبها :

الأصل في تعقُّب نُسخ المخطوطات العربية وتجميعها وتحديد منازلها ، هو دخول المكتبات المحتوية عليها ، والتنقير فيها عمَّا نريد . ولكن كيف يتأتّىٰ ذلك والمكتبات بالمئات . وهي موزّعة في الأقطار العربية والإسلامية والأجنبية . ناهيك

عن المكتبات الخاصة في بيوت العلماء المشتغلين بالتراث ، ممَّا لا نعلم عنها إلَّا أقل القليل .

والثاني : هو الاطِّلاع علىٰ فهارس المخطوطات المنشورة ، ولكن كيف يتاح للباحث ذلك ، والفهارس عددًا بالمئات ، وتصف آلاف المخطوطات . وتكشف عن وجودها في مكتبات موزعة في أنحاء شتى من العالم .

ثم أين هذه المكتبة التي تحرص على اقتناء هذه الفهارس جميعها ، والتزوّد بكل فهرس يَصْدُر أولًا بأول . فضلاً عن أن المخطوطات تواجه مشكلة من أعوص مشكلاتها . وهي أن ثُلثيها غيرُ مفهرس ، ولا تعرف عنه ، ولا عن توصيفه شيئًا .

بإزاء هذه الصعوبات والعقبات ليس أمام الباحث إلّا الرجوع إلى بعض ما يُشبه الموسوعات في التراث العربي المخطوط . وهي التي اهتمّت بذكر هذه المخطوطات ، وأماكن وجودها ، وأرقامها فيها .

أ ـ **وأول كتاب ببليوغرافي ضخم من هذا القبيل** . كان قد تصدى له كارل بروكلمان ، المتوفى ١٩٥٦ م . وهو مُستَعْرِب ألماني ، وضع كتابه باللغة الألمانية بعنوان ترجمته : « **تاريخ الأدب العربي** » ، ويُرمز له بحروف ثلاثة GAL . ولم يقصد بالأدب هنا الشعر والنثر ، وإنما قصد التراث العربي في فروع المعرفة من فكرٍ وثقافة .

لقد قضىٰ بروكلمان نحو خمسين عامًا إلى أن وضع كتابه في مجلدين ، وثلاثة ملاحق . ذيَّل الملحق الثالث بكشّافين عاميّن للمؤلِّفين والكتب . وهما مفيدان يمكن الاعتماد عليهما .

التزم بروكلمان في كتابه الترتيب الزمني ، فقَسَّمه علىٰ العصور والدول ، مبتدئًا بالعصر الجاهلي ، ومنتهيًا بالعصر الحديث (١٩٠٠م) . وفي كلِّ عصر أو

دولة ذكر الموضوعات أو العلوم التي أُلِّف فيها ، وتحت كلٍّ موضوع منها ذكر المؤلِّفين الذين جلَّوْا في هذا العلم ، مبتدئًا بسني وَفَيَاتهم ، القديم منهم فالأحدث . وتحدَّث بإيجاز شديد عن حياة كلّ مؤلِّف ، وذكر مصادر ترجمته ، وكتبه التي ألفها ، ومواضع هذه المخطوطات في المكتبات وأرقامها فيها وبيَّن عند كل مؤلَّف ما طُبع منه ، وما صُنِّف حوله من شروح وتعليقات . وعليه استبعد الأعمال مجهولة المؤلِّف .

وعِيب علىٰ بروكلمان أن بتقسيمه العقيم جزّأ وحدة الموضوع ، وعُذْره أنه غطَّىٰ مساحة زمنية كبيرة من الجاهلية إلىٰ العصر الحديث .

ذكر بروكلمان في كتابه نحو عشرين ألف مخطوطة . وهو عدد قليل جدًّا بالنظر إلى واقع المخطوطات في مكتبات العالم . ويعود سبب النقص إلىٰ أنه اعتمد علىٰ الفهارس المطبوعة إلىٰ زمنه . وبهذا وقع أيضًا فيما وقعت فيه هذه الفهارس من أوهام وأخطاء في الفهرسة .

وننبّه علىٰ أن بروكلمان وضع رموزًا للمكتبات ، في هيئة قوائم تجدها في أول أجزاء كتابه ، حتىٰ لا يكرِّر ٱسم المكتبة مطوّلًا .

ومن إيجابيات بروكلمان التي خدمت التراث العربي الفكري والثقافي المخطوط ، أنه ـ وهو يستعمل حروف الهجاء باللاتينية ـ وضع علىٰ بعضها إشارات صغيرة تُناسب الحرف العربي ، كالدال تقابل عنده d ، والذال ḏ ، والضاد ḍ ، وهكذا بقية الحروف .

ويُذكر أن فؤاد سزكين في عمله ، الذي سنذكره عَمَّا قليل ، قد ٱعتمد صنيع بروكلمان في هذه الحروف ، بل درج كلُّ المستشرقين مِن بعده .

ب ـ **والعمل الثاني الببليوغرافي الضخم نهض به فؤاد سزكين** ، المعاصر لنا .

وهو تركي مسلم ، ألماني الجنسية ، أستاذ في جامعة فرانكفورت ، في مادة تاريخ العلوم العربية والإسلامية . وقد أسس معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار برامج جامعة فرانكفورت العلمية .

وكان سزكين قد أحسَّ بالنقص والخلل الذي وقع في كتاب بروكلمان . فألَّف كتابًا جديدًا **بعنوان « تاريخ التراث العربي »** .

وقد قسّمه على الموضوعات في أربعة عشر مجلدًا . الأول : في علوم القرآن والحديث والفقه والتصوف . والثاني : في الشعر والأدب . والثالث : في الطب والصيدلة وعلم الحيوان والبيطرة . والرابع : في علم الطبيعة والكيمياء والنبات والزراعة . وكان يُمهِّد لكل علم من هذه العلوم بمقدمة ضافية عن نشأته وتطوره . وبهذا أزال عيبًا عند بروكلمان ، وهو تجزِيء وحدة الموضوع .

ثم أزال سزكين عيبًا آخر ، فلم يعتمد على الفهارس المطبوعة ، وإنما توخّىٰ أن يدخل المكتبات ويطلع علىٰ المخطوطات بنفسه . وأضاف في كتابه عنه ذِكْرِ كلِّ مخطوطة ورقمها في المكتبة ، سنة نسخها ، وعدد أوراقها وأجزائها ، وهذه إضافة لها قيمة عالية عند الباحثين .

وبإزاء حجم العمل الضخم الموكَل إلىٰ سزكين ، خطَّط أن يكون كتابه بدءًا من العهد الأموي ، حيث نشأت العلوم ، وشُرِع في أواخره بتدوين المصنَّفات ، مستمرًّا إلى عام ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م ـ وهي ـ دون شك ـ أزهىٰ العصور العربية تأليفًا في مختلف العلوم .

وقد بلغ عدد الدول التي زارها واَطّلع فيها على مخطوطاتها نحو مئة دولة . ودخل ـ على سبيل المثال ـ ٩٧ مكتبة في مدينة إستانبول وحدها . وكان لا يُصدر جزءًا إلّا بعد اكتمال عمله ، حتى لا يقع فيما وقع فيه بروكلمان في نشر الملاحق .

وأصدر الجزء الأول ، في لَيْدِن أيضًا ، عام ١٩٦٧م ثم تتابعت الأجزاء ، وهو الآن يعمل في آخر جزءين من مشروعه .

ونذكر أنه نال على هذا العمل جائزة الملك فيصل العالمية ، وأودع قيمة هذه الجائزة في بنك إسلامي باسم المعهد الذي أنشأه .

ونوّع سزكين في أثبات كل جزء عمّا صنعه بروكلمان . وتبقىٰ قيمة بروكلمان باقية للاطلاع على نُسَخ الإنتاج الفكري ، والثقافي العربي من بعد سنة (٤٣٠هـ / ١٠٣٩م) إلى العصر الحديث .

وتوجّهت غير محاولة لترجمة كتاب بروكلمان . ولحسن الحظ أن المحاولة الأخيرة التي قامت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد تمّت ، وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب العمل كاملاً . وصُنع لكل جزء كشافٌ واحد ، قام به - فيما يبدو - مَن ليس له في التراث نصيب ، فجاءت عويصة ، اعتمدت على الأسماء دون الشهرة ، ويعوز الأجزاء كلها كشافات عامّة مُسْعفة متنوعة .

أما ترجمة كتاب سزكين فالمحاولة الأولىٰ توقفت من أوّل خطواتها . ومحاولة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض ، فقد أصدرت منه مترجمًا أقسامًا عديدة من بعض أجزائه . وتوقّف المشروع دون تكملته .

* * *

الفصل العاشر

(٢)

المصادر العامة لتحقيق النصوص

(٣)

الحقل الثاني : ما طُبع مُحقَّقًا :

من أخطر ما يواجه الباحث في ميدان تحقيق النصوص ، عجز المحاولات التي تزوّده بمعلومات عمّا طُبع من كتب التراث ، وما لم يُطبع . وبالتالي إمداده بتوصيف لهذه الطبعات ، ليرىٰ إن كانت تحتاج إلىٰ تحقيق جديد .

ونقصر الحديث على الكتب التالية :

١ ـ **اكتفاء القَنوع بما هو مطبوع** ، لِ إدوارد فانْدَيْك . طُبع هذا الكتاب في القاهرة ، عام ١٨٩٦م ، في ٦٨٠ صفحة . وهو شامل لما طُبع بالعربية منذ القديم إلىٰ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي . رتَّبه على العلوم أو الموضوعات . وصَنَع له ثَبتَين للمؤلِّفين والكتب .

٢ ـ **معجم المطبوعات العربية والمعرَّبة** . لِ يوسف إليان سركيس (ت ١٩٣٢م) . مادته في ١٠١٢ صفحة (الصفحة في عمودين) . فرغ من طبعه سنة ١٩٢٨ م . احتوى على ما صُنِّف بالعربية منذ بدء الطباعة إلى نهاية ١٩١٩م . فيه نحو عشرة آلاف كتاب ، رتَّبها على المؤلِّفين بشهرتهم . ألحقه بالكتب مجهولة المؤلِّفين . وقسمٌ للمجاميع ، المحتوية على أكثر من كتاب . وفي آخره ثبت بأسماء الكتب الواردة فيه .

٣ ـ **جامع التصانيف الحديثة** ، لِ يوسف إليان سركيس . وهو تكملة لكتابه سالف الذكر ، في جزئين : الأول لما طبع من سنة ١٩٢٠م ـ ١٩٢٦م ، والثاني لمطبوعات ١٩٢٧م .

٤ ـ **معجم المخطوطات المطبوعة** لِ د. صلاح الدين المنجِّد . رصد فيه ما

طُبع من التراث محقَّقًا على منهج التحقيق العلمي . وضعه في خمسة أجزاء ، غطّىٰ فيها ما طُبع في سبع وعشرين سنة (من ٥٤ ـ ١٩٨٠م)، واحتوىٰ علىٰ ١٥٠٠ مؤلِّف . رتَّبه على أسماء المؤلِّفين بشهرتهم . وفي أجزائه أثبات للكتب المطبوعة .

٥ ـ **ذخائر التراث العربي الإسلامي** ، لِـ عبد الجبَّار عبد الرحمن . وضعه في جزئين . رصد فيه ما طُبع منذ القديم إلى عام ١٩٨٠م . وفيه ما طبعه المستشرقون من تراثنا . ذكر فيه خمسة آلاف كتاب رتَّبها على المؤلِّفين بالشهرة . وفي آخره ثَبتَان للكتب والمحققين .

٦ ـ **المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع** . لِـ د. محمد عيسى صالحية . طبعه بتكليف من معهد المخطوطات العربية . وقد جاء في خمسة أجزاء رتّبه علىٰ المؤلِّفين بالشهرة . وتمَّ طبع الجزء الخامس سنة ١٩٩٥م .

بيدَ أن هذا العمل شابَهُ نقصٌ فادح ، وهو ضياع أُصول الجزء الرابع في مطابع الكويت ، في أحداث عام ١٩٩٠م . فقام المعهد بتعويض هذا الجزء بإصدار جزء بديل ، صدرخلال عام (٢٠٠٨م) من إعداد محمد أحمد المعصراني .

٧ ـ **أتبعه المعهد بـ** :

أ ـ **المستدرك الأول على الجزء الأول** ، لِـ هلال ناجي ، ط ١٩٩٦م .

ب ـ **المستدرك الأول على الجزء الثاني** ، لِـ د. عمر عبد السلام تدمري ، ط ١٩٩٧ م .

جـ ـ **فهرس دواوين الشعراء والمستدركات في الدوريات والمجاميع** ، لِـ د. محمد جبَّار المعيبد ؛ عام ١٩٩٨م .

د ـ **معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية والباكستانية حتى عام**

١٩٨٠م ، لِـ د. أحمد خان . وقد رتّبه على المؤلِّفين بالشهرة وألحقه بالكتب مجهولة المؤلِّفين ، وثَبَت للكتب الواردة فيه .

هذا كلُّ المتاح للباحثين إلىٰ يومنا هذا .

(٤)

الحقل الثالث : توثيق العنوان :

هذا هو البداية الأولىٰ في تحقيق النصوص ، ويسعفنا في توثيق ، العنوان كتابان :

١ ـ **كشف الظنون ، لِـ حاجِّي خليفة** (ت عام ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) . ويُعدُّ هذا الكتاب أوسع كتاب ببليوجرافي كُتب باللغة العربية . اطَّلعَ المؤلف لوضعه على مخطوطات إستانبول وحلب . وأفاد ممن سبقه ، أعني : طاش كبري زاده (ت ٩٦٨ هـ) صاحب كتاب « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » خاصة في موضوعات العلوم والفنون وتاريخها ومؤلفاتها . صدر في مجلدين . وهو كتاب معتمد عند كثير من الباحثين ، بالرغم من مضي نحو ثلاثة قرون ونصف القرن على تأليفه .

رتَّبه على عنوانات الكتب ، وأدخل فيه التعريف بالعلوم ، وذكر فيه نحو مائتي علم . احتوىٰ الكتاب على نحو خمسة عشر ألفًا من أسماء الكتب والرسائل ، وعشرة آلاف مؤلِّف . ويذكر تحت ٱسم الكتاب شروحه وحواشيه والتعليقات عليه .

من سلبياته أنه لم يستقصِ علوم المغرب واليمن . وذكره خمس مئة مخطوطة مجهولة المؤلف . وأخطأ في بعض سنوات الوَفَيات ، وتركه بعضها فارغًا دون إكمال .

ويحتاج الكتاب إلى جمع مخطوطاته ، وغالبها في تركيا ، وتحقيقه من جديد ، وصنع أثبات مختلفة تكشف عن كنوزه وفوائده .

٢ ـ **إيضاح المكنون لِـ إسماعيل باشا البغدادي** (ت ١٩٢٠م) . وهو استدراك علىٰ كشف الظنون ، وما فاته من ذكر المخطوطات ، وبين وفاتيهما ما يزيد على مئتين وخمسين سنة . ونظامه نظام كشف الظنون . وضعه المؤلف في مجلدين ، أورد فيهما تسعةَ عشر ألف مخطوطة . ويحتاج إلىٰ إعادة تحقيق ، وخدمة النص خدمة وافية .

(٥)

الحقل الرابع : ترجمة المؤلِّف وتوثيق العنوان إليه :

مصادر هذا الحقل كثيرة ، ذلك لأن العرب اعتَنَوْا بهذا اللون من المؤلَّفات المرتبة على أسماء العلماء والمشاهير . نذكر منها أولًا كتب الوَفَيات الثلاثة :

١ ـ **وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لِـ شمس الدين بن خَلِّكان** (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) . ترجم فيه ما يزيد علىٰ ثمان مئة ترجمة من العلماء والملوك والأمراء والوزراء والشعراء والكُتَّاب . وَوَصل فيه إلى سنة ٦٥٤هـ ، وهي السنة التي أتمَّ فيها تأليفَ كتابه .

رتَّبه على حروف الهجاء بأسماء المترجَم لهم ، لا بشهرتهم . لقد كان ابن خَلِّكان ثقة فَعَرض تراجمه بأمانة علمية ، ومن تميُّز الكتاب أن المؤلِّف ضبط الأعلام بالحروف لا بالشكل ، ليضمن عدم وقوعها في التصحيف أو التحريف .

آخر تحقيقاته عام ١٩٧٢ م (دار صادر ـ بيروت) لِـ إحسان عباس ، في ثماني مجلدات ، آخرها أثبات عامة .

٢ ـ **فَوَات الوَفَيات : للمؤرخ الثقة ابن شاكر الكتبي** ، (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) يدل عنوانه علىٰ أنه ذيَّل على ابن خَلِّكان واستدرك عليه . ذكر تراجم

ست مئة ترجمة لم يذكرهم ابن خَلِّكان في كتابه ، مع ملاحظة أن بينهما قرنًا من الزمان . وطريقته هي طريقة ابن خَلِّكان في ترتيبه . آخر طبعاته المحقَّقة لِـ إحسان عباس ، في خمسة أجزاء . الأخير منها للأثبات العامة (دار صادر ـ بيروت) .

٣ ـ **الوافي بالوَفَيَات ، لِـ صلاح الدين الصَّفَدي** (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) وهي السنة التي توفي فيها ابن شاكر الكتبي . وكتابه ضخم استوعب فيه ما ذكره ابن خَلِّكان ، وطبقات الأدباء لِـ ياقوت الحموي ، وزاد عليها ، وقد ترجم لنحو أربعة عشرَ ألف ترجمة من الأعيان والمشاهير من الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والقُرَّاء والمحدِّثين والنحاة والأدباء والشعراء والأطباء ... رتَّبه علىٰ حروف المعجم ، مبتدئًا بسيرة الرسول الكريم ﷺ ، وأتبعها بتراجم المحمَّدِين . اهتمت جمعية المستشرقين الألمانية بنشر هذا الكتاب واستفتح تحقيق الجزء الأول منه هلموت ريتر عام ١٩٦٢ م . وقد وصل إلىٰ ما يزيد علىٰ ثلاثين جزءًا ، ولم ينته بعد ، وقد قُسِّم تحقيقه على علماء متعددين .

٤ ـ **سِيَر أعلام النبلاء ، لِـ شمس الدين الذهبي** (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م) . وهو موسوعة في التراجم منذ بدء التاريخ الإسلامي إلى عهد المؤلف . وقسَّم تراجمه على خمسٍ وثلاثين طبقة مبتدئًا بالسيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، ثم الصحابة والتابعين ... إلخ . صدر مُحققًا في مؤسسة الرسالة في خمسٍ وعشرين مجلدة ، آخرها مجلدتان للأثبات العامة ، وتم صدوره عام ١٩٨٨ م . ونذكر أن الجزئين الأول والثاني في السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، قد أخذت مادتهما عن كتاب « تاريخ الإسلام » للمؤلِّف نفسه .

٥ ـ **هدية العارفين إلىٰ أسماء المؤلِّفين وآثار المصنِّفين ، لِـ إسماعيل باشا البغدادي** (ت ١٩٢٠م) . وهو صاحب « إيضاح المكنون » الذي أتينا علىٰ ذكره في توثيق العنوان .

تناول المؤلف ما ذُكر في « كشف الظنون » ، وكتابه « إيضاح المكنون » ، ورتّبه على طريقة أخرىٰ . وهي بأسماء المؤلِّفين على وَفْق الحروف الهجائية ، وجمع مؤلَّفات المؤلِّف الواحد تحت ٱسمه . طُبع الكتاب في جزئين ، في إستانبول (عام ١٩٥١) . وهو يحتاج إلىٰ تحقيق جديد . وأثباته الحالية عقيمة ليس من السهل العثور على ما تريد منها .

٦ ـ **الأعلام ، لِـ خير الدين الزِّركلي** (ت ١٩٧٦م) : وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . وهو من أشمل المعجمات الحديثة . بلغ عدد المترجَمين في طبعته الأخيرة نحو ١٢ ألف ترجمة . ترجمته مُحْكَمَة دقيقة ، وفي ثنايا التراجم يُشير إلىٰ ما ٱطَّلع عليه من كتبهم المخطوطة في دمشق والرباط (بالمغرب الأقصىٰ) ، وكذلك لوحات خطوط العلماء . استخدم الإحالات التي تساعد الباحث في الكشف عمّا يريد . ويحتاج الكتاب إلى من يجدده . فصدر غير جزء بمثابة ذيول واستدراكات للكتاب ، دون تنسيق منظَّم ، فيها تكرار للجهود .

٧ ـ **معجم المؤلِّفين ، لِـ عمر رضا كحّالة** (ت ١٩٨٧م) :

وهو في تراجم مُصنِّفي الكتب العربية للراحلين من عرب وعجم ، منذ بدء التدوين إلى عصره . بلغت تراجمه نحو عشرين ألف ترجمة ، وهو في هذه البابة أتمُّ وأكمل من « الأعلام » ، فقد استوعب ما ذكره الزركلي ، وزاد عليه . تراجِمه مختصَرة ، ويهتمّ باستقصاء مصادر الترجمة في الكتب والدوريات والجرائد .

وقبل وفاته بنحو أربع سنين (في سنة ١٩٨٣م) وضع مستدركًا على كتابه في مجلدة كبيرة ، وألحق مستدركه هذا بذيلين . يخلو الكتاب من ثبت بأسماء الكتب الواردة ، ويحتاج إلى إعادة تحقيق بإزالة التراجم المكررة ، وإدخال مادة المستدرك وذيليه في مواضعها .

(٦)

الحقل الخامس : المصادر المرتَّبة على الموضوعات :

خُصِّص هذا الحقل لكتاب مهم هو « الفهرست » لـِ النديم (ت ٣٨٠ هـ / خريف ٩٩٠م) .

كان النديم ورّاقًا ، ومهنته هذه التي أعانته على وضع هذا الكتاب الذي جمع فيه الإنتاج الفكري العربي منذ التدوين إلى نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بما فيه ما تُرجم من اللغات الأخرى إلى العربية . ويُعدُّ هذا الكتاب أقدم كتاب ببليوجرافي وصل إلينا بالعربية . ذكر فيه قرابة ٦٤٠٠ كتاب . قسَّمه علىٰ عشرة مقالات ، وقسَّم كل مقالة إلى فنون ، بلغ عددها ثلاثة وثلاثين فنًّا في اللغة والشعر والفقه والحديث والفلسفة والعلوم التجريبية والطب والصيدلة والموسيقى إلخ ...

اهتم المستشرقون بالكتاب ، وأصدروه محقَّقًا في ألمانيا علىٰ يد فلوجل في أواخر القرن التاسع عشر . وهناك طبعة في طهران . وحققه وترجمه إلى الإنكليزية بَيَارد دوج في مجلدين عام ١٩٧٠م . وطُبع حديثا بمؤسسة الفرقان للتراث عام ٢٠٠٩م في أربعة مجلدات بتحقيق د. أيمن فؤاد سيد .

(٧)

الحقل السادس : المَشْيَخات :

تعود نشأة مصادر هذا الحقل إلىٰ عهود قديمة من تاريخ بدء التدوين والتأليف في التراث العربي . وهي تآليف منبثقة عن أسلوب توثيق بعض العلوم كالحديث النبوي ، وطريقة تلقِّي هذه العلوم من العلماء الشيوخ ، فطالب العلم حين ينضج تعلّمه ، يؤلف كتابًا يبين فيه العلماء الشيوخ الذين تلقَّىٰ عليهم علومه ، والكتب

التي قرأها عليهم ، والإجازات التي حصل عليها ، ويسجِّل في كتاب رحلته العلمية ، والشيوخ الذين أخذ عنهم ، ويذكر كتبهم التي انتفع بها .

عدَّ الببليوجرافيون هذه المؤلَّفات من الكتب الببليوجرافية ، لاحتوائها على أسماء الكتب . وهي تُفيد في توثيق نسبة هذه الكتب بعنواناتها لأصحابها عند التحقيق .

وتكشف لنا عن أسلوب التعليم ، وأنواع تلقِّي العلوم المختلفة ، ومستواه ، والإجازات التي تُمنح للطلاب ، وقد سُمِّيت بأسماء مختلفة يمكن حصرها في ستة ألفاظ : المشيخة ، المعجم ، الفهرِس ، البرنامَج ، الثَّبَت ، السَّنَد .

وتختلف مناهج تأليفها ، وطريقة تبويبها وتقسيمها .

ويمكن حصر هذه المناهج في ثلاثة أساسية .

أ ـ **ما رُتِّب على الكتب التي قرأها المؤلِّف علىٰ وَفْق موضوعاتها** ، مثل فهرسة ابن خَيْر الإشبيلي (ت ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م) .

ب ـ **ما رُتِّب علىٰ الشيوخ الذين قرأ المؤلِّف عليهم** . وبالتالي ما روى عنهم من كتب ، مثل فهرس ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٨م) ، وبرنامج شيوخ الرُّعَيني (ت ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م) .

جـ ـ **ما جمع فيه المؤلف بين الطريقتين السالفتين** ، كما نجد في برنامج ابن جابر الوادي آشي (ت ٧٤٦هـ ـ ١٣٤٥م) . وخصَّص الجزء الأول لأسماء الشيوخ ، والثاني لما أخذه مُرتَّبًا على العلوم مبتدئًا بعلوم القرآن فالحديث ، إلخ ...

(٨)

الحقل السابع : تعريفات العلوم ومصطلحاتها :

هذا اللون من التأليف عرفه العرب في حضارتهم في وقت مبكِّر . وتُعنىٰ هذه

الكتب بتعريف كلٍّ علم من العلوم التي ألَّف العرب فيها ، وبيان هذا العلم ، والفروق التي تميّزه عن غيره من علومٍ أخرى . وبالتالي المؤلفات التي وُضعت فيه . وأسماء مؤلِّفيها . ولهذا اهتممنا بهذه المصنَّفات .

ولعلّ أقدم مؤلَّف وصل إلينا كان في القرن الرابع الهجري . **وهو كتاب « مفاتيح العلوم »** الذي صنَّفه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف البلخي الخُوَارِزْمي الكاتب (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) .

وقد جمع فيه بين التأليفين الموسوعي والمعجمي . وقسّم كتابه إلى مقالتين . الأولى في علوم العرب القائمة على « النقل » ، والثانية في علوم العجم ، المترجمة إلىٰ العربية ، في علوم « العقل » وجميعها عُرفت في عصره .

والكتاب الثاني : « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لمؤلّفه طاش كبري زاده (ت ٩٨٦ هـ / ١٥٦١م) .

رتَّبه علىٰ أنواع العلوم المعروفة في عصره ، ذكر منها نحو ثلاث مئة علم . ومن ثمَّ سجّل أهم المؤلفات في كلٍّ علم تعرَّض له . وذكر مختصراتها وشروحها . وهو من أكمل الكتب في تصنيف العلوم وتقسيمها .

والكتاب الثالث : كشف الظنون ، لِـ حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) .

وكنَّا قد أتينا على ذكره في حقل من الحقول المبنيَّة على توثيق العنوان . وذكرنا أنه أفاد من كتاب طاش كُبري زاده ، وخلَّل كتابه بنحو مائتي علم من العلوم ، وضعها بترتيبها الهجائي .

وصنع في العلم ما صنعه طاش كبري زاده في « مفتاح السعادة » ببيان حدِّ العلم والكتب المؤلَّفة فيه .

* * *

الكَشَّافَات

١- كَشَّافُ الكُتُبُ

٢- كَشَّافُ الأعلام

١- كشاف الكتب

* * *

٢- كشاف الأعلام

تم الكتاب بحمد الله

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِلمُؤَلِّف

* هو الأستاذ عصام محمد الشنطي شيخ مفهرسي المخطوطات وخبير المخطوطات بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية .

* **وُلِد** في بفلَسْطين في اليوم الثامن عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٢٩م .

* تلقىٰ تعليمه الأساسي في فِلَسطين ، حتى المرحلة الثانوية ثم شدَّ الرِّحال إلى القاهرة في عام ١٩٤٨ ليكمل تعليمه بها ، فحصل على الليسانس في الآداب بكلية الآداب جامعة القاهرة قسْم اللغة العربية بتقدير جيد جدًّا عام ١٩٥٣ . وفي عام ١٩٦٧ حصل على دبلوم الدراسات العليا من معهد البحوث والدراسات العربيَّة بالقاهرة بتقدير جيد جدًّا ، وكان أول دُفعته.

* **عمل في** العام التالي لتخرجه عام ١٩٥٤ بوزارة الشؤون الاجتماعيَّة الأردنية في بيت المقدس ، ثم عمل منذ عام ١٩٥٧ في التدريس بضع سنين في معهد المعلِّمين العالي بطرابلس (ليبيا) .

* **أُتيح له** منذ عام ١٩٦٧ أن يعمل في جامعة الدول العربية (معهد المخطوطات العربية) في القاهرة ، ثم تونس ، فالكويت ، في مجال التراث .

* **انتهى عملُه** مديرًا لمعْهد المخطوطات العربية ببلوغه السن القانونية في آخر عام ١٩٨٩، واستمر عطاؤُه في المعهد - وهو بيته - خبيرًا متفرِّغًا ، وعضوًا في مجلسه الاستشاري منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا .

* ومنذ إنشاء قسم للدراسات العليا في « علْم المخطوطات وتحقيق النصوص » بالمعهد أخذ يُحاضر في قواعِد تحقيق النصوص ، ومصادر التُّراث العامة ، وفهْرسة المخْطُوطات ، ويُشارك في الإشْراف على رسائل درجة الماجستير والدكتوراه .

* **سافَر إلى** أكثر مِن بلد عربي وأجنبي ليُنقِّب عنْ المخطوطات ، ويكْشف عن

النفيس منها لصالِح جامعة الدول العربية، ومن ثَمَّ للباحثين في أرجاء العالم .

* **تنوعت مؤلَّفاته** ما بين كُتُب ، ومقالات دوريات ، وفهارس مخْطوطات ، وأعمال مؤتمرات وندوات ومحاضرات في اللغة والنقد والتُّراث . **ومنها :**

ـ أدوات تحقيق النصوص ـ المصادر العامة ، مكتبة الإمام البخاري ، الإسماعيلية مصر ، الطـ . الأولىٰ ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

ـ كبيكج في المخطوطات العربية ، بحث لـ آدم كتشك ، ترجمة ، تراثيات ، القاهرة ، العدد الثامن ، يوليو ٢٠٠٦م .

ـ ترقيق الأسل لتصفيق العَسَل ، الفيروزأبادي ، تحقيق وتقديم (بالاشتراك) ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، الطـ . الأولىٰ ، ٢٠٠٦م .

ـ حاصل كَوْرة الخِلاص في فضائل سورة الإخلاص ، الفيروزأبادي ، تحقيق وتقديم (بالاشتراك) مكتبة الإمام البخاري ، الإسماعيلية ، مصر ، الطـ . الأولىٰ ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

– الجمالية والواقعية في نقدنا الأدبي الحديث ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطـ الأولىٰ ، ١٩٧٩م .

ـ فهارس المخطوطات العربية المصوَّرة ، القاهرة ، معهد المخطوطات العربية ، اربعة عشر فهرسًا ، في الفلسفة والجغرافيا والسياسة والتاريخ والفلك واللغة والنحو والأدب والأصول ، صدرت ما بين سنة ١٩٨٦ ـ ٢٠١٠م .

ـ بحوث نُشرت في دوريات أكاديمية محكَّمة ، عُظْمها في علم المخطوطات وقضاياه ـ نحو خمسة وثلاثين بحثًا .

ـ مقالات نُشرت في دوريات ثقافية ، عُظْمها في التراث العربي ـ نحو عشرين مقالة .

* * *

فصول في التراث المخطوط

هذا الكتاب

مجموعة من المحاضرات القيمة التي ألقاها خبير المخطوطات وشيخ مفهرسي المخطوطات الأستاذ عصام الشنطي في جمعية المكنز الإسلامي بالقاهرة .

جمعها في فصول موجزة ومركزة لتغطي الكلام على أصول فن تحقيق المخطوطات فتحدث عن : أهمية التراث للأمة وأسباب تألق الحضارة العربية الإسلامية ودواعي نجاحها .. وتعريف المخطوطة والوراقة والنساخة وأهم المكتبات الزاخرة بالمخطوطات .. وتَوَزُّع المخطوطات العربية والإسلامية في العالم .. وفهرسة المخطوطات العربية والإسلاميةومناهجها وعناصرها وثقافة المفهرس .. وقواعد تحقيق النصوص .. والمصادر العامة لتحقيق النصوص .. والتصحيف والتحريف في اللغة العربية .. وغير ذلك مما سيراه القارئ .

فهي بحق دورة متكاملة لكل من يرغب في معرفة هذا الفن والله الموفق

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع
لصاحبها أسعد عبد المقصود
الإسماعيلية ٤٦ شارع الجمهورية .. الثلاثيني .. بعد السنترال
تليفون ٠١٢٢٣٦٧٦٧٩٧